# سورة الأنبياء

## مكية في قول الجميع، وهي مئة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

**قوله تعالى:** ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قال عبد الله بن مسعود: الكهفُ ومريمُ وطه والأنبياءُ من العِتَاق الأُول، وهنَّ من تِلادي. يريد من قديم ما كسب وحَفِظَ من القرآن، كالمال التِّلاد[1].

وروي أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جداراً، فمرَّ به آخَرُ في يومِ نزول هذه السورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: نزل ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ فنفض يده من البنيان، وقال: واللهِ لا بَنَيْتُ أبداً وقد اقترب الحساب[2].

«اقترب» أي: قَرُبَ الوقت الذي يحاسبون فيه على أعمالهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣ ، وسلف خبر ابن مسعود ١٣/ ٥ . والتِّلاد: كلُّ مال قديم من حيوان وغيره يورَث عن الآباء. اللسان (تلد).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣ .

«للناس» قال ابن عباس: المرادُ بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[١].

وقيل: الناسُ عمومٌ وإن كان المُشَارُ إليه في ذلك الوقتِ كفارَ قريش، يدلُّ على ذلك ما بَعْدُ من الآيات، ومَن عَلِم اقترابَ الساعة قَصُر أملُه، وطابت نفسُه بالتوبة، ولم يَرْكَنْ إلى الدنيا، فكأنَّ ما كان لم يكن إذا ذهب، وكلُّ آتٍ قريبٌ، والموتُ لا محالةَ آتٍ؛ وموتُ كلِّ إنسانٍ قيامُ ساعتِه، والقيامةُ أيضاً قريبةٌ بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقي من الدنيا أقلُّ ممَّا مضى.

وقال الضحَّاك: معنى ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، أي: عذابُهم، يعني أهلَ مكة؛ لأنَّهم استَبْطَؤوا ما وُعِدوا به من العذاب تكذيباً، وكان قَتْلُهم يومَ بَدْر[٢].

النحاس[٣]: ولا يجوز في الكلام: اقترب حسابُهم للناس؛ لئلَّا يتقدَّم مُضْمَرٌ على مُظْهَرٍ لا يجوز أن يُنْوَى به التأخير. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر، ويجوز النصبُ في غير القرآن على الحال. وفيه وجهان: أحدهما: «وهم في غفلةٍ معرِضون» يعني بالدنيا عن الآخرة. الثاني: عن التأهُّب للحساب وعمَّا جاء به محمدٌ ﷺ.

وهذه الواوُ عند سيبويه بمعنى «إذ» وهي التي يسمِّيها النَّحْويون واوَ الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤][٤].

قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ «مُحْدَثٍ» نعتٌ لـ «ذِكْرٍ». وأجاز الكسائيُّ والفرَّاءُ: مُحْدَثاً، بمعنى: ما يأتيهم مُحْدَثاً؛ نصب على الحال. وأجاز الفرَّاء أيضاً رَفْعَ «مُحْدَث» على النعت للذِّكر[٥]؛ لأنك لو حذفتَ «مِن» رفعتَ

---

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦١ - ٥٦٢ .

(٢) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٥ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٦٣ .

(٤) ينظر الكتاب ١/ ٩٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٣ .

(٥) قرأ: محدثٌ: ابنُ أبي عبلة، وقرأ: محدثاً: زيد بن علي، والقراءتان من الشواذ. البحر ٦/ ٢٩٦ .

ذكراً[١]، أي: ما يأتيهم ذكرٌ من ربِّهم مُحدَثٌ. يريد: في النزول وتلاوةِ جبريلَ على النبيِّ ﷺ؛ فإنَّه كان ينزل سورةً بعد سورةٍ، وآيةً بعد آيةٍ، كما كان ينزله الله تعالى عليه في وقتٍ بعد وقت، لا أنَّ القرآنَ مخلوق.

وقيل: الذِّكْرُ ما يذكِّرهم به النبيُّ ﷺ ويَعِظُهم به، وقال: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يَنْطِقُ إلَّا بالوحي، فوَعْظُ النبيِّ ﷺ وتحذيرُه ذِكْر، وهو مُحْدَث[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، ويقال: فلانٌ في مجلس الذكر.

وقيل: الذِّكْرُ الرسولُ نفسُه؛ قاله الحسين بن الفضل؛ بدليل ما في سياق الآية: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٣] ولو أراد بالذِّكر القرآنَ لقال: هل هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين، ودليلُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١-٥٢] يعني محمداً ﷺ، وقال: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ يعني محمداً ﷺ، أو القرآنَ من النبيِّ ﷺ، أو من أمته. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الواوُ واوُ الحال يدلُّ عليه ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

ومعنى «يَلْعَبُونَ»، أي: يلهُون. وقيل: يشتغلون. فإنْ حُمِل تأويلُه على اللَّهو، احتَمَل ما يلهُون به وجهين: أحدهما: بلذَّاتهم. الثاني: بسماع ما يُتلى عليهم. وإن حُمل تأويلُه على الشُّغل، احتَمَل ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما: بالدنيا لأنَّها لعب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]. الثاني: يتشاغلون بالقَدْح فيه والاعتراض عليه. قال الحسن: كلَّما جَدَّد لهم الذكرَ استمرُّوا على الجهل[٤]. وقيل: يستمعون القرآنَ مستهزئين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٣ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣ .

(٣) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٣٩ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٣٦ .

قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ساهيةً قلوبُهم، مُعْرِضةً عن ذكر الله، متشاغلةً عن التأمُّل والتفهُّم، من قول العرب: لَهِيْتُ عن ذكر الشيء: إذا تركتَه وسَلَوْتَ عنه، أَلْهَى لُهِيًّا ولِهْياناً[١].

و«لاهية» نعتٌ تقدَّم الاسمَ، ومن حقِّ النَّعت أن يتبع المنعوتَ في جميع الإعراب، فإذا تقدَّم النعتُ الاسم انتصب، كقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٤] و﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ [الإنسان: ١٤] و﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[٢] قال الشاعر:

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ يَلُوحُ كَأَنَّهُ خِلَلُ[٣]

أراد: طللٌ موحِشٌ. وأجاز الكسائيُّ والفرَّاء: لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ، بالرفع[٤] بمعنى: قلوبُهم لاهيةٌ. وأجاز غيرهما الرفعَ على أن يكون خبراً بعدَ خبر، وعلى إضمار مبتدأ. وقال الكسائيُّ: ويجوز أن يكون المعنى: إلَّا استمعوه لاهيةً قلوبُهم[٥].

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: تَناجَوْا فيما بينهم بالتكذيب، ثم بيَّن مَن هم فقال: «الَّذِينَ ظَلَمُوا»، أي: الذين أشركوا، فـ«الذين ظلموا» بدلٌ من الواو في «أسرُّوا»، وهو عائدٌ على الناس المتقدِّم ذِكْرُهم[٦]؛ ولا يوقَف على هذا القولِ على

---

(١) الصحاح (لها). وقيد الجوهري: لهِيتُ بالكسر، وذكر صاحب اللسان (لها) فيها وجهين: لهِي ولهَى.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٨ .

(٣) الجمل في النحو للخليل ص٧٦ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٦٦٤ ، واللسان خلل، والخزانة ٣/ ٢١١ ، وعندهم: لميَّةَ، بدل: لعزة. وجاء في شرح المفصل ٢/ ٦٤ :

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلٌ قَدِيم عَفَاه كُلُّ أَسْحَمَ مُسْتَدِيمُ

وذكره البغدادي في الخزانة بلفظ: لمية وقال: مَن رواه: لعزة، قال: هو لكثير عزة، ومن رواه: لمية، قال: إنه لذي الرمة. والخِلل جمع خِلَّة: وهي بطانة يغشَّى بها جَفْنُ السيف ـ وهو غمده ـ تنقش بالذهب وغيره. اللسان (خلل).

(٤) قرأ بها ابن أبي عبلة وعيسى، وهي من الشواذ. البحر ٦/ ٢٩٦ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٣ - ٦٤ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٨ .

(٦) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٤ هذا القول عن سيبويه. وقال أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٧ : قاله المبرد، وعزاه ابن عطية إلى سيبويه.

«النجوى»[١]. قال المبرِّد: وهو كقولك: إنَّ الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله، فبنو بدلٌ من الواو في انطلقوا[٢].

وقيل: هو رفعٌ على الذمِّ، أي: هم الذين ظلموا[٣].

وقيل: على حذفِ القول، التقدير: يقول الذين ظلموا، وحذفَ القول، مثل: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]. واختار هذا القولَ النحاسُ[٤]؛ قال: والدليلُ على صحة هذا الجوابِ أنَّ بعده: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وقول رابع: يكون منصوباً بمعنى: أعني الذين ظلموا[٥].

وأجاز الفراء أن يكون خفضاً بمعنى: اقترب للناس الذين ظلموا حسابُهم[٦]؛ ولا يوقَفُ على هذا الوجه على «النجوى»، ويوقَفُ على الوجوه المتقدِّمة الثلاثةِ قبلَه[٧]. فهذه خمسة أقوال.

وأجاز الأخفش[٨] الرفعَ على لغةِ مَن قال: أكلوني البراغيث. وهو حسن؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة:٧١]، وقال الشاعر:

بك نال النِّضالُ دون المساعي ... فاهتديْنَ النِّبالُ للأغراضِ[٩]

---

(١) المكتفى في الوقف والابتداء للداني ص٣٨٥ .

(٢) الوسيط ٣/ ٢٢٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٦٣ ، وما قبله منه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٤ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦٣ .

(٧) المكتفى في الوقف والابتداء ص٣٨٥ .

(٨) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦٣ .

(٩) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٢/ ٣١٣ برواية: عاد، بدل: نال. قال التبريزي: =

وقال آخر:

ولـــكِـــنْ دِيَـــافـــيٌّ أبـــوه وأمُّـــهُ بحَوْرَانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أَقَارِبُهْ[١]

وقال الكسائيُّ: فيه تقديمٌ وتأخير، مَجازُه: والذين ظلموا أسرُّوا النجوى[٢].

أبو عبيدة[٣]: «أسرُّوا» هنا من الأضداد، فيَحْتَمِل أن يكونوا أَخْفَوْا كلامَهم، ويَحْتَمِل أن يكونوا أَظْهَروه وأَعْلَنوه.

قوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: تناجَوْا بينهم وقالوا: هل هذا الذِّكْرُ الذي هو الرسولُ ـ أو هل هذا الذي يدعوكم ـ إلَّا بشرٌ مثلكم لا يتميَّز عنكم بشيء، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق كما تفعلون. وما عَلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ بيَّن أنه لا يجوزُ أن يُرسِلَ إليهم إلَّا بشراً ليتفَّهموا ويعلِّمهم.

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: إنَّ الذي جاء به محمدٌ ﷺ سحرٌ، فكيف تجيئون[٤] إليه وتتَّبعونه؟ فأَطْلَع الله نبيَّه عليه الصلاة والسلام على ما تناجَوْا به. والسحر في اللغة: كلُّ مموَّهٍ لا حقيقةَ له ولا صحَّة. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنه إنسانٌ مثلُكم، مثل: وأنتم تعقلون؛ لأنَّ: العقل البَصَرُ بالأشياء.

وقيل: المعنى: أفتَقْبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ وقيل: المعنى: أفَتَعْدِلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحقَّ[٥]؟ ومعنى الكلامِ التوبيخ.

---

= أصل النضال في الرمي، وذلك أن يرمي الرجلان والجماعة في الغرض لينظر أيهم أرمى، ثم نقل ذلك إلى الحرب والتفاخر. اهـ. والغرض: هدف يرمى فيه. القاموس (غرض).

(١) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٦، والكتاب ٢/ ٤٠، والخزانة ٥/ ٢٣٤. قال الشنتمري في شرح الشواهد ص٢٥٢ - ٢٥٣: هجا رجلاً فجعله من أهل القرى المعتملين لإقامة عيشهم، وديافٍ قرية بالشام، والسليط: الزيت.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٨.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٣٤.

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ): تجيبون.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٧.

**قوله تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ربِّي يعلم القولَ في السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يَخْفَى عليه شيءٌ ممَّا يقال في السماء والأرض. وفي مصاحف أهل الكوفة: ﴿قَالَ رَبِّي﴾[١] أي: قال محمدٌ: ربي يعلم القول، أي: هو عالمٌ بما تَناجَيْتُم به.

وقيل: إنَّ القراءة الأُولى أَوْلى؛ لأنهم أسرُّوا هذا القولَ، فأَظْهَر الله عزَّ وجلَّ عليه نبيَّه ﷺ، وأمره أن يقول لهم هذا؛ قال النحاس[٢]: والقراءتان صحيحتان، وهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أنَّ النبيَّ ﷺ أُمر، وأنه قال كما أُمر.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ قال الزجَّاج[٣]: أي قالوا: الذي يأتي به أضغاثُ أحلام. وقال غيره: أي: قالوا: هو أخلاطٌ كالأحلام المختلِطة، أي: أهاويلُ رآها في المنام؛ قال معناه مجاهدٌ وقتادة[٤]، ومنه قولُ الشاعر:

كَضِغْثِ حُلْمٍ غُرَّ منه حَالِمُه[٥]

وقال القُتبيُّ: إنَّها الرؤيا الكاذبة، ومنه قول الشاعر:

أحاديثُ طَسْمٍ أو سرابٌ بفَدْفَدٍ تَرقْرَقَ للسَّاري وأضغاثُ حالِمِ[٦]

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿قَالَ﴾ بالألف، والباقون من السبعة بغير ألف. السبعة ص٤٢٨، والتيسير ص١٥٤.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٦٤.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٣٨٤.

(٤) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٢٦، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٧، وسلف ١١/ ٣٦٢.

(٦) ذكر قول القُتبي مع البيت الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧. وطَسْم: قبيلة من عاد انقرضوا. والفَدْفد: الفلاة. اللسان (طسم)، و(فدد).

وقال اليزيديُّ: الأضغاثُ: ما لم يكن له تأويل[١]. وقد مضى هذا في «يوسف»[٢].

فلمَّا رأَوْا أنَّ الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك فقالوا: «بل افتراه»، ثم انتقلوا عن ذلك فقالوا: «بل هو شاعر»[٣]. أي: هم متحيِّرون لا يستقرُّون على شيء؛ قالوا مرةً: سحر، ومرةً: أضغاثُ أحلام، ومرةً: افتراه، ومرةً: شاعر.

وقيل: أي: قال فريقٌ: إنه ساحر، وفريقٌ: إنه أضغاث أحلام، وفريقٌ: إنه افتراه، وفريقٌ: إنه شاعر. والافتراءُ: الاختلاق؛ وقد تقدَّم[٤].

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: كما أُرسل موسى بالعصا وغيرِها من الآيات، ومثل ناقة صالح. وكانوا عالمِين بأنَّ القرآن ليس بسحرٍ ولا رؤيا، ولكن قالوا: ينبغي أنْ يأتيَ بآيةٍ نقترحُها. ولم يكن لهم الاقتراحُ بعد ما رأَوْا آيةً واحدة.

وأيضاً إذا لم يؤمنوا بآيةٍ هي من جنسِ ما هم أعلمُ الناس به، ولا مجالَ للشُّبهة فيها، فكيف يؤمنون بآية غيرِها؟! ولو أبرأ الأَكْمَهَ والأبرصَ لقالوا: هذا من بابِ الطبّ، وليس ذلك من صناعتنا. وإنما كان سؤالهم تعنُّتاً؛ إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفايةٌ، وبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنَّهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣][٥].

قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: يريد قومَ صالحٍ وقومَ فرعون. ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ يريد: كان في علمنا هلاكُها ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يريد: يصدِّقون،

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧.

(٢) ١١/ ٣٦٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥.

(٤) ٦/ ٤١١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥.

أي: فما آمنوا بالآيات، فاستؤصلوا، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لَمَا آمنوا؛ لِمَا سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضاً، وإنَّما تأخَّر عقابهم لِعِلمنا بأنَّ في أصلابهم مَن يؤمن. و«مِن» زائدةٌ في قوله: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾، كقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

**قوله تعالى:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أرسَلْنا قَبْلَكَ إلَّا رجالاً يُوحَى إليهم﴾ هذا ردٌّ عليهم في قولهم: «هل هذا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكم» وتأنيسٌ لنبيِّه ﷺ، أي: لم يُرسِل[1] قبلَك إلَّا رجالاً. ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يريد أهلَ التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ؛ قاله سفيان. وسمَّاهم أهلَ الذكر؛ لأنهم كان يذكُرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب. وكان كفار قريشٍ يراجعون أهل الكتاب في أمرِ محمدٍ ﷺ.

وقال ابنُ زيد: أراد بالذِّكر القرآن، أي: فاسألوا المؤمنين العالِمين من أهل القرآن. قال جابرٌ الجُعْفيُّ: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال عليٌّ ﷺ: نحن أهلُ الذِّكر[2].

وقد ثبت بالتَّواتُر أنَّ الرسل كانوا من البشر، فالمعنى: لا تبدؤوا بالإنكار، وبقولكم: ينبغي أن يكون الرسولُ من الملائكة، بل ناظِروا المؤمنين ليبيِّنوا لكم جوازَ أن يكون الرسول من البشر. والمَلَكُ لا يُسمَّى رجلاً؛ لأنَّ الرجل يقع على ما لَه ضدٌّ من لَفْظِه؛ تقول: رجلٌ وامرأة، ورجلٌ وصبيٌّ، فقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أي: من بني

---

(١) في (خ): نرسل.

(٢) أخرج قول ابن زيد وقول علي ﷺ الطبريُّ ١٦/ ٢٢٩، وجابر الجعفي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

آدم. وقرأ حفص: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[١].

**مسألة**: لم يختلف العلماء أنَّ العامَّة عليها تقليدُ علمائها، وأنَّهم المرادُ بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾. وأجمعوا على أنَّ الأعمى لابدَّ له من تقليدِ غيره ممن يثقُ بمَيْزِه بالقبلة إذا أشكلتْ عليه، فكذلك مَن لا عِلْمَ له ولا بَصَرَ بمعنَى ما يَدِينُ به لابدَّ له من تقليدِ عالِمِه، وكذلك لم يختلف العلماء أنَّ العامَّة لا يجوز لها الفُتيا؛ لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليلُ والتحريمُ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ الضميرُ في: «جعلناهم» للأنبياء، أي: لم نجعل الرسلَ قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ يريد: لا يموتون. وهذا جوابٌ لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ وقولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].

و«جسداً» اسمُ جنس، ولهذا لم يقل: أجساداً[٣]. وقيل: لم يقل: أجساداً؛ لأنه أراد: وما جعلنا كلَّ واحدٍ منهم جسداً.

والجسد: البدن؛ تقول منه: تَجسَّد، كما تقول من الجسم: تَجسَّم. والجسدُ أيضاً: الزَّعْفَرَانُ أو نحوُه من الصِّبْغ، وهو الدَّمُ أيضاً؛ قال النابغة:

وما هُرِيقَ على الأنصابِ من جَسَدِ[٤]

وقال الكلبيُّ: والجسدُ هو المجسَّد[٥] الذي فيه الروحُ يأكل ويشرب، فعَلَى

---

(١) السبعة ص٤٢٨ ، والتيسير ص١٣٠. ووقع في النسخ: حفص وحمزة والكسائي، وذكر حمزة والكسائي في هذا الموضع وهم، والصواب أن ثلاثتهم قرؤوا: «نوحي» بالنون في الآية (٢٥) من هذه السورة كما سيرد في موضعه إن شاء الله. وينظر البحر ٦/ ٢٩٨ ، والدر المصون ٦/ ١٣٥ .

(٢) ينظر الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/ ٦٧ - ٦٨ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٦٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٩ .

(٤) وصدره: فلا لَعَمْرُ الذي مسَّحْتُ كعبتَه، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص٣٥ ، والصحاح (جسد)، والكلام منه.

(٥) في (م): المتجسد.

مقتضَى هذا القولِ يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسماً. وقال مجاهدٌ: الجسدُ: ما لا يأكل ولا يشرب؛ فعلى مقتضَى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نَفْساً؛ ذكره الماوَرْديّ[١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ يعني الأنبياء، أي: بإنجائهم ونَصْرِهم وإهلاكِ مكذِّبيهم. ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي: الذين صدَّقوا الأنبياء. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المشركين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ يعني القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ رفعٌ بالابتداء، والجملةُ في موضعِ نصبٍ لأنَّها نعتٌ لكتاب[٢]. والمرادُ بالذكر هنا الشرف، أي: فيه شرفُكم، مثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤][٣]. ثم نبَّههم بالاستفهام الذي معناه التوقيفُ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٤].

وقيل: فيه ذكركُم، أي: ذِكْرُ أمرِ دِينِكم، وأحكامِ شَرْعِكم، وما تصيرون إليه من ثوابٍ وعقاب، أفلا تعقلون هذه الأشياءَ التي ذكرناها؟!

وقال مجاهد: «فِيهِ ذِكْرُكُمْ»، أي: حديثكم. وقيل: مكارِمُ أخلاقِكم، ومحاسنُ أعمالكم. وقال سهل بن عبد الله: العملُ بما فيه حياتُكم[٥].

قلت: وهذه الأقوالُ بمعنًى، والأوّلُ يَعمُّها؛ إذ هي شرفٌ كلُّها، والكتابُ شرفٌ لنبيِّنا عليه الصلاةُ والسلام؛ لأنه معجزتُه، وهو شرفٌ لنا إنْ عملنا بما فيه، دليلُه قولُه

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٤٣٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥.

(٣) الوسيط ٣/ ٢٣١، وهذا القول ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ عن ابن عيسى، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤١ من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وذكره الطبري ١٦/ ٢٣٢ دون نسبة وقال: وهذا القول أشبه بمعنى الكلمة.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٩، وخبر مجاهد في تفسيره ١/ ٤٠٧، وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٢.

عليه الصلاةُ والسلام: «القرآن حُجَّةٌ لك أو عليك»[١].

**قوله تعالى:** ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ يريد مدائنَ كانت باليمن. وقال أهل التفسير والأخبار: إنه أراد أهلَ حَضُورٍ، وكان بُعث إليهم نبيٌّ اسمُه شعيب بن ذي مَهْدَم، وقبرُ شعيبٍ هذا باليمن بجبلٍ يقال له: ضِيْن[٢]، كثيرِ الثَّلج، وليس بشعيبٍ صاحبِ مَدْيَنَ؛ لأنَّ قصة حَضُورٍ قبل مدةِ عيسى عليه السلام، وبعد مِئينَ من السنين من مدَّةِ سليمانَ عليه السلام، وأنهم قتلوا نبيَّهم وقَتَل أصحابُ الرَّسِّ في ذلك التاريخ نبيًّا لهم اسمُه: حنظلة بنُ صفوان، وكانت حَضُورٌ بأرض الحجاز من ناحية الشام، فأوحى الله إلى أرميا أنِ ائتِ بختنصَّر فأعْلِمْه أنِّي قد سلَّطته على أرض العرب، وأنِّي منتقمٌ بكَ منهم، وأوحى الله إلى أرميا أنِ احمِلْ مَعَدَّ بنَ عدنان على البُراقِ إلى أرض العراق كي لا تصيبه النِّقمةُ والبلاءُ معهم، فإنِّي مستخرجٌ من صُلْبِه نبيًّا في آخِر الزمان اسمُه محمد. فَحمَل مَعَدًّا وهو ابن اثنتي عَشرةَ سنةً، فكان مع بني إسرائيل إلى أنْ كبِر وتزوَّج امرأةً اسمُها معانة، ثم إنَّ بختنصَّر نهض[٣] بالجيوش، وكَمَنَ للعرب في مكانٍ ـ وهو أوَّلُ مَن اتَّخذ المَكَامِنَ فيما ذَكروا ـ ثم شنَّ الغارات على حَضُورٍ، فقتَل وسَبَى وخَرَّب العامِر، ولم يترك بحَضُورٍ[٤] أثراً، ثم انصرف راجعاً إلى السَّوَاد.

---

(١) قطعة من حديث أبي مالك الأشعري، أخرجه مسلم (٢٢٣)، وسلف ١/ ٦ .

(٢) اضطرب اللفظ في النسخ، والمثبت من التعريف والإعلام ص١١٢ ، والكلام منه، وكذا ذكره ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٤٦٥ وقال: ضِيْن بكسر الضاد وسكون الياء.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): نهد، ولم تجود في (د)، والمثبت من (م) والتعريف والإعلام.

(٤) في التعريف والإعلام: لحضور.

و«كَمْ» في موضع نصبٍ بـ «قصمنا»[١]. والقَصْمُ: الكسر؛ يقال: قَصَمْتُ ظَهْرَ فلانٍ [إذا كسرته]، وانقصَمَتْ سِنُّه: إذا انكسرت، والمَعْنِيُّ به هاهنا: الإهلاك[٢].و أمَّا الفَصْم ـ بالفاء ـ فهو الصَّدْعُ في الشيء من غير بينونة؛ قال الشاعر:

كـأنَّـهُ دُمْـلُـجٌ مـن فِـضَّـةٍ نَـبَـهٌ في مَلْعبٍ من عَذَارَى الحيِّ مَفْصُومُ[٣]

ومنه الحديث: «فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَه لَيتفصَّدُ عَرَقاً»[٤].

وقولُه: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة، يعني: أهلها. والظلمُ: وضعُ الشيء في غيرِ مَوْضِعِه، وهم وَضَعوا الكفرَ مَوْضِعَ الإيمان .﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أَوْجَدْنَا وأَحْدَثْنا بعد إهلاكهم ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي: رأَوْا عذابنا؛ يقال: أحسستُ منه ضَعْفاً. وقال الأخفش: «أحسُّوا»: خافوا وتوقَّعوا.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ويَفِرُّون. والرَّكضُ: العَدْوُ بشدَّةِ الوَطْء. والرَّكضُ: تحريكُ الرِّجل، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ورَكَضْتُ الفرسَ برِجْلي: استَحْثَثْتُه ليَعْدُوَ، ثم كَثُر حتى قيل: رَكَض الفرسُ: إذا عَدَا، وليس بالأصل، والصوابُ: رُكِض الفرسُ، على ما لم يسمَّ فاعلُه، فهو مَرْكوض[٥].

﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي: لا تَفِرُّوا. وقيل: إنَّ الملائكة نادتهم لمَّا انهزموا استهزاءً بهم

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٢٣٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لذي الرمة، والبيت في ديوانه ١/ ٣٩١ ، والصحاح (فصم). قال الجوهري: يذكر غزالاً يشبِّهه بدُمْلُج فضة، وإنما جعله مفصوماً؛ لتَثَنِّيه وانحنائه إذا نام. وقال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: نَبَهٌ: مَنْسِيٌّ، انتبهوا له انتباهاً، لا يدرون أي موضع افتقدوه، وقوله: في ملعب، أي: حيث تلعب الجواري. اهـ والدملج: حلية تحيط بالعضد. المعجم الوسيط (دملج).

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦١٩٨)، والبخاري (٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) الصحاح (ركض).

وقالت: «لا تركضوا»[١].

﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾ أي: إلى نعمكم التي كانت سببَ بَطَرِكم، والمُترَفُ: المتنعِّم، يقال: أُترفَ على فلان، أي: وُسِّعَ عليه في معاشه. وإنما أَترفَهم الله عزَّ وجلَّ كما قال: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣].

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ أي: لعلكم تُسألون شيئاً من دنياكم؛ استهزاءً بهم؛ قاله قتادة[٢]. وقيل: المعنى: لعلكم تُسألون عمَّا نزل بكم من العقوبة فتخبِرون به. وقيل: المعنى: لعلكم تُسألون أنْ تؤمنوا كما كنتم تُسألون ذلك قبل نزول البأس بكم، قيل لهم ذلك استهزاءً وتقريعاً وتوبيخاً.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾ لمَّا قالت لهم الملائكة: «لا تركضوا»، ونادت: يا لَثاراتِ الأنبياء! ولم يَرَوْا شخصاً يكلِّمهم، عرفوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي سلَّط عليهم عدوَّهم بقتلهم النبيَّ الذي بُعث فيهم، فعند ذلك قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، فاعترفوا بأنَّهم ظَلموا حين لا ينفع الاعتراف.

﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: لم يزالوا يقولون: «يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» ﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا﴾ أي: بالسيوف كما يُحصَد الزرع بالمِنْجَل؛ قاله مجاهد[٣]. وقال الحسن: أي: بالعذاب[٤] ﴿خَٰمِدِينَ﴾ أي: ميتين. والخُمودُ: الهمودُ؛ كخمود النار إذا طَفِئَتْ، فشبَّه خمودَ الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات: قد طَفِئَ؛ تشبيهاً بانطفاء النار[٥].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٣- ٣٦٤ ، ونسبه لقتادة ومقاتل.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ ، وأخرجه عنه الطبري ١٦/ ٢٣٦ .

(٣) أخرجه عنه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٢ ، والطبري ١٦/ ٢٣٧ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠ .

**قوله تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: عَبَثاً وباطلاً، بل للتَّنبيه على أنَّ لها خالقاً قادراً يجب امتثالُ أمره، وأنه يجازي المسيءَ والمُحْسِن؛ أي: ما خَلَقْنا السماءَ والأرض ليظلم بعضُ الناس بعضاً، ويكفُرَ بعضُهم، ويخالفَ بعضُهم ما أُمر به، ثم يموتوا ولا يُجازَوْا، ولا يؤمروا[1] في الدنيا بحَسَنٍ ولا يُنْهَوا عن قبيح. وهذا اللعبُ المَنْفيُّ عن الحكيم ضدُّه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ لمَّا اعتقدَ قومٌ أنَّ له ولداً قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ واللهوُ: المرأةُ بلغة اليمن؛ قاله قتادة[2].

وقال عقبة بن أبي جَسْرَة ـ وجاءه طاوسٌ وعطاءٌ ومجاهدٌ يسألونه عن قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ فقال ـ : اللهوُ: الزوجة. وقاله الحسن[3].

وقال ابن عباس: اللهو: الولد[4]. وقاله الحسن أيضاً[5].

قال الجوهريُّ[6]: وقد يُكْنَى باللَّهو عن الجِماع.

قلت: ومنه قولُ امرئ القيس:

---

(١) في (د) و(ز): ولا يأمروا، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٦ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٩ .

(٣) كذا قال المصنف رحمه الله، والخبر كما أخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٨ : عن عقبة عن أبي جسرة قال: شهدت الحسن بمكة، قال: وجاءه طاوسٌ وعطاءٌ ومجاهد فسألوه عن قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قال الحسن: اللهو: المرأة.

(٤) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٦٤ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢٣٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤٣ ، وهو من رواية الكلبي عن ابن عباس كما ذكر الواحدي.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٤٠ .

(٦) في الصحاح (لها).

أَلَا زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ اليومَ أَنَّني كَبِرتُ وأَلَّا يُحسِنَ اللَّهْوَ أمثالي[١]

وإنَّما سُمِّي الجماعُ لهواً؛ لأنَّه مَلْهًى للقلب، كما قال:

وفيهِنَّ مَلْهًى للصديق ومَنْظَرُ[٢]

الجوهريُّ[٣]: وقولُه تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قالوا: امرأةً، ويقال: ولداً.

﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: مِن عندِنا لا مِن عندِكم. قال ابن جريج: [لاتَّخذْنا نساءً وولداً] مِن أهل السماء لا مِن أهل الأرض[٤]. قيل: أراد الرَّدَّ على مَن قال: إنَّ الأصنام بناتُ الله، أي: كيف يكون مَنْحُوتكم ولداً لنا؟ وقال ابن قتيبة[٥]: الآيةُ ردٌّ على النصارى.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال قتادةُ ومقاتلٌ وابن جريج والحسن: المعنى: ما كنا فاعلين[٦]، مثل: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] أي: ما أنت إلَّا نذير. و«إن» بمعنى الجَحْدِ، وتمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾.

وقيل: إنه على معنى الشَّرط، أي: إن كنَّا فاعلين ذلك، ولكنْ لَسْنا بفاعلين ذلك[٧] لاستحالة أن يكون لنا ولد؛ إذ لو كان ذلك لم نخلقْ جنةً ولا ناراً، ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً[٨].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٢٨ .

(٢) صدر بيت لزهير وعجزه: أنيقٌ لعين الناظر المتوسم، وهو في شرح ديوانه ص١٠ برواية: للَّطيف، بدل: للصديق، وسلف ١٢/ ٢٣٣ .

(٣) في الصحاح (لها).

(٤) أخرجه عنه الطبري ١٦/ ٢٣٩ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٠ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص١٢٤ .

(٦) أخرجه عن قتادة وابن جريج الطبري ١٦/ ٢٣٩ ، وذكره عن مقاتل البغوي ٣/ ٢٤١ ، وعن الحسن ابن الجوزي ٥/ ٣٤٤ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٧ . وقال الزجاج: والقول الأول قول المفسرين، والثاني قول النحويين، وهم أجمعون يقولون القول الأول ويستجيدونه.

(٨) في (د) و(ز): حياتاً.

وقيل: لو أردنا أن نتخذ ولداً على طريق التبنِّي لاتخذناه من عندنا من الملائكة. ومالَ إلى هذا قوم؛ لأنَّ الإرادة قد تتعلَّق بالتبنِّي، فأمَّا اتِّخاذُ الولدِ فهو مُحال، والإرادةُ لا تتعلَّق بالمستحيل؛ ذكره القُشَيْريّ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ القذف: الرَّمْي، أي: نرمي بالحقِّ على الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يَقْهَره ويُهْلِكُه. وأصلُ الدَّمْغ: شجُّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه: الدَّامِغة[١]. والحقُّ هنا: القرآن، والباطل: الشيطان؛ في قول مجاهد[٢]؛ قال: وكلُّ ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان. وقيل: الباطلُ: كذبُهم ووَصْفُهم الله عزَّ وجلَّ بغير صفاته من الولد وغيره.

وقيل: أراد بالحقِّ: الحُجَّةَ، وبالباطل: شُبَهَهُم. وقيل: الحقُّ: المواعظ، والباطل: المعاصي[٣]. والمعنى متقارِبٌ، والقرآنُ يتضمَّن الحجَّةَ والموعظة.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: هالِكٌ تالِف؛ قاله قتادة[٤]. ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ أي: العذاب في الآخرة بسبب وَصْفِكم اللهَ بما لا يجوز وَصْفُه. وقال ابن عباس: الويلُ وادٍ في جهنَّم؛ وقد تقدَّم[٥].

﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: مما تكذبون؛ عن قتادة ومجاهد[٦]، نظيرُه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩] أي: تكذيبَهم[٧]. وقيل: مما تصفون اللهَ به من المُحال، وهو اتِّخاذُ الولد[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٤١ ، والصحاح (دمغ).

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤١ عن قتادة، ولم نقف عليه من مجاهد.

(٣) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤١ وقال: قاله بعض أهل الخواطر.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٦/ ٢٤٠ .

(٥) ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١ مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وإسناده ضعيف ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤١ عن قتادة.

(٧) في (م): بكذبهم.

(٨) في (م): وهو اتخاذه سبحانه الولد.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِلْكاً وخَلْقاً، فكيف يجوز أن يُشرك به ما هو عَبْدُه وخَلْقُه؟! ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة الذين ذكرتُم أنهم بناتُ الله. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا يَأنفون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ والتذلُّلِ له ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: يُعْيُون؛ قاله قتادة. مأخوذٌ من الحسير: وهو البعيرُ المنقطِعُ بالإعياء والتعب[١]، حَسَر البعيرُ يَحسِر حُسوراً: أَعْيا وكَلَّ، واستَحْسَر وتَحَسَّر مِثْلُه، وحَسَرْتُه أنا حَسْراً، يتعدَّى ولا يتعدَّى، وأَحْسَرْته أيضاً فهو حَسير[٢].

وقال ابن زيد: لا يَمَلُّون[٣]. ابن عباس: لا يَستنكفون[٤]. وقال أبو زيد[٥]: لا يَكِلُّون. وقيل: لا يفشلون؛ ذكره ابن الأعرابي[٦]؛ والمعنى واحد.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يُصَلُّون ويذكرون الله وينزِّهونه دائماً ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يَضعفون ولا يسأمون، يُلْهَمون التَّسبيحَ والتَّقديسَ كما يُلهمون النَّفَس. قال عبدالله بن الحارث: سألت كعباً فقلت: أمَا لهم شغلٌ عن التسبيح؟ أمَا يَشْغلُهم عنه شيء؟ فقال: مَن هذا؟ فقلت: مِن بني عبد المطلب، فضمَّني إليه وقال: يا ابن أخي، هل يشغلك شيءٌ عن النَّفَس؟! إنَّ التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس[٧]. وقد استدلَّ بهذه الآيةِ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٤١ ، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٦/ ٢٤٣ .

(٢) الصحاح (حسر).

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤٣ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤١ عن الكلبي، وأخرج الطبري ١٦/ ٢٤٢ عن ابن عباس قال: لا يرجعون.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): ابن زيد، ولم نقف على قوله.

(٦) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٥٩ .

(٧) أخرْجه الطبري ١٦/ ٢٤٤ ، والبيهقي في الشعب (١٦١).

مَن قال: إنَّ الملائكة أفضلُ من بني آدم. وقد تقدَّم والحمد لله[١].

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ قال المفضَّل: مقصودُ هذا الاستفهام: الجَحدُ، أي: لم يتَّخذوا آلهةً تقدِرُ على الإحياء. وقيل: «أم» بمعنى «هل»، أي: هل اتَّخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض يُحيون الموتى؟ ولا تكون «أم» هنا بمعنى بل؛ لأنَّ ذلك يُوجِب لهم إنشاءَ الموتى، إلَّا أن تقدَّر «أم» مع الاستفهام، فتكون «أم» المنقَطِعةَ، فيصحّ المعنى[٢]؛ قاله المبرِّد.

وقيل: «أم» عطفٌ على المعنى، أي: أَفَخلقْنا السماءَ والأرض لعباً، أم هذا الذي أضافوه إلينا من عندنا فيكونَ لهم مَوْضعَ شبهة؟ أو: هل ما اتَّخذوه من الآلهة في الأرض يُحيي الموتى فيكونَ موضعَ شُبْهةٍ؟. وقيل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ١٠]، ثم عَطَفَ عليه بالمعاتبة، وعلى هذين التأويلين تكونُ «أم» متَّصلةً.

وقرأ الجمهور: ﴿يُنشِرُونَ﴾ بضمِّ الياء وكَسْرِ الشين مِن أَنْشَر الله الميتَ فنُشِر، أي: أحياه فحيِيَ. وقرأ الحسن بفتح الياء[٣]، أي: يَحْيَوْنَ ولا يموتون[٤].

**قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لو كان في السماوات

---

(١) ١/ ٤٣٠.

(٢) قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦٦: هذه أم المنقطعة، الكائنة بمعنى بل والهمزة، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٧٨.

(٣) القراءات الشاذة ص٩١.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٨.

والأرضين آلهةٌ غيرُ الله معبودون لفَسَدَتا. قال الكسائيُّ وسيبويه: «إلَّا» بمعنى غير، فلمَّا جُعلت إلَّا في موضعِ غيرٍ؛ أُعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غير، كما قال:

وكـــلُّ أخٍ مـــفـــارقُـــه أخـــوهُ لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ إلَّا الْـفَـرْقَـدَانِ[1]

وحكى سيبويه: لو كان معنا رجلٌ إلَّا زيدٌ لهلَكْنا.

وقال الفراء: «إلا» هنا في موضعِ سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهةٌ سوى اللهِ لفَسَد أهلُهما[2]. وقال غيره: أي: لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأنَّ أحدهما إن أراد شيئاً وأراد الآخَرُ ضدَّه كان أحدهما عاجزاً.

وقيل: معنى «لَفَسَدَتَا» أي: خَرِبتا وهَلَكَ مَن فيهما بوقوع التنازُع والاختلاف[3] الواقعِ بين الشركاء.

﴿فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نَزَّه نفسه وأَمَر العباد أن ينزِّهوه عن أن يكون له شريكٌ أو ولد.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ قاصمةٌ للقدريَّة وغيرهم. قال ابن جريج: المعنى: لا يسأله الخَلْقُ عن قضائه في خَلْقِه، وهو يَسأل الخَلْقَ عن عملهم؛ لأنهم عبيد. بيَّن بهذا أنَّ مَن يُسأل غداً عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلُح للإلهية. وقيل: لا يؤاخَذ على أفعاله وهم يؤاخَذون[4].

وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، أيُحِبُّ ربُّنا أن يُعصَى؟

---

(١) الكتاب ٢/ ٣٣٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٧ ، والكلام منه، وسلف ١١/ ٥٤ . والشاهد فيه: نعت «كلُّ» بقوله: «إلا الفرقدان» على تأويل «غير»، والتقدير: وكلُّ أخ غيرُ الفرقدين مفارقه أخوه. شرح الشواهد للشنتمري ص٣٦٨ .

(٢) في النسخ: أهلها، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨ وعنه نقل المصنف.

(٣) في (د) و(ز) و(م): بالاختلاف، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٤٢ .

قال: أفيُعْصَى ربُّنا قَهْراً؟ قال: أرأيتَ إنْ منعني الهدى ومنحني الرَّدى، أأحْسَنَ إليَّ أم أساء؟ قال: إن منعك حقَّك فقد أساء، وإن منعك فَضْلَه فهو فضلُه يؤتيه مَن يشاء. ثم تلا الآية: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1].

وعن ابن عباس قال: لمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ موسى وكلَّمه، وأنزل عليه التوراة، قال: اللهمَّ إنك ربٌّ عظيم، لو شئتَ أن تُطاع لأُطِعت، ولو شئت ألَّا تُعصى ما عُصيتَ، وأنت تحبُّ أن تطاع، وأنت في ذلك تُعصى، فكيف هذا يا رب؟! فأوحى الله إليه: إنِّي لا أُسأل عمَّا أفعَلُ وهم يُسألون[2].

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أعاد التعجُّبَ في اتِّخاذ الآلهة من دون الله مبالغةً في التوبيخ، أي: صفتهم كما تقدَّم في الإنشاء والإحياء، فتكون «أم» بمعنى هل، على ما تقدَّم، فليأتوا بالبرهان على ذلك.

وقيل: الأولُ احتجاجٌ من حيث المعقولُ؛ لأنه قال: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ويُحيون الموتى، هيهات! والثاني احتجاجٌ بالمنقول، أي: هاتوا برهانكم من هذه الجهة، ففي أيِّ كتابٍ نزل هذا؟! في القرآن، أم في الكتب المنزلةِ على سائر الأنبياء؟!

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ بإخلاص التوحيد في القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ في التوراة والإنجيل وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل في كتابٍ من هذه الكتب أنَّ الله أمر باتخاذ آلهةٍ سواه؟! فالشرائعُ لم تختلف فيما يتعلَّق بالتوحيد، وإنما اختلفت في

---

(١) لم نقف عليه عن علي ﷺ، وذكره ابن شيث في حزّ الغلاصم ص١٨ عن جعفر بن محمد مع أحد القدرية، وذكر نحوه ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٦٤ -٦٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وأخرج القطعة الثانية منه وهي قوله: أرأيت إن منعني...، عن ابن عباس بنحوها. وذكره الحافظ في الفتح ١٣/ ٤٥١ بتمامه على أنه مناظرة بين بعض أئمة السنة مع بعض أئمة المعتزلة، وزاد في أوله: قال المعتزلي: سبحان مَن تنزَّه عن الفحشاء، فقال السُّنِّي: سبحان مَن لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال المعتزلي: أيشاء ربنا أن يعصى...

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٦٠٦) مطولاً، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٦٨) واللفظ له. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٠ : فيه أبو يحيى القتات، وهو ضعيف عند الجمهور... ومصعب بن سوار لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

الأوامر والنَّواهي.

وقال قتادة: الإشارة إلى القرآن، المعنى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ بما يلزمُهم من الحلال والحرام ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من الأمم، ممَّن نجا بالإيمان وهلك بالشرك[١].

وقيل: ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ بما لهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من الأمم السالفةِ فيما يُفعل بهم في الدنيا، وما يُفعل بهم في الآخرة[٢].

وقيل: معنى الكلامِ الوعيدُ والتهديد، أي: افعلوا ما شئتم، فعن قريب ينكشف الغطاء.

وحكى أبو حاتم: أنَّ يحيى بنَ يَعْمُر وطلحةَ بنَ مُصرِّفٍ قرأا: «هذا ذِكْرٌ مِن معي وذِكْرٌ مِن قَبْلي» بالتنوين وكَسْرِ الميم[٣]، وزعم أنه لا وجهَ لهذا. وقال أبو إسحاق الزجَّاج في هذه القراءة: المعنى: هذا ذكرٌ مما أُنزل إليَّ وممَّا هو معي، وذكرٌ مِن قَبْلي[٤]. وقيل: ذكرٌ كائن مِن قَبْلي، أي: جئتُ بما جاءت به الأنبياء مِن قَبْلي.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ وقرأ ابن مُحيصن والحسن: «الْحَقُّ» بالرفع، بمعنى: هو الحقُّ، أو هذا الحقُّ[٥]. وعلى هذا يوقفُ على: «لا يعلمون» ولا يوقف عليه على قراءة النصب. ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عن الحقِّ، وهو القرآن، فلا يتأمَّلون حجَّةَ التوحيد.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٤٣ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٨ .

(٣) المحتسب ٢/ ٦١ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩١ عن يحيى وحده، وذكر عن طلحة أنه قرأ: «هذا ذكرٌ معي وذكرٌ قبلي». والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): هو الحق وهذا هو الحق، والمثبت من (خ) و(ظ) والمحتسب ٢/ ٦١ والكلام منه. وذكر القراءة أيضاً عن ابن محيصن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٩١ .

**قوله تعالى:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رسولٍ إِلَّا يُوحَى إليه﴾. وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾ بالنون[١]؛ لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: قلنا للجميع: لا إله إلا الله؛ فأدلةُ العقل شاهدةٌ أنه لا شريكَ له، والنقلُ عن جميع الأنبياء موجود، والدليلُ إمَّا معقولٌ وإمَّا منقول. وقال قتادة: لم يُرسَل نبيٌّ إلَّا بالتوحيد، والشرائعُ مختلفةٌ في التوراة والإنجيل والقرآن، وكلُّ ذلك على الإخلاص والتوحيد[٢].

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ﴾ نزلت في خُزاعةَ حيث قالوا: الملائكةُ بناتُ الله[٣]، وكانوا يعبدونهم طَمَعاً في شفاعتهم لهم. وروى معمرٌ عن قتادة قال: قالت اليهود ـ قال معمر في روايته[٤]: أو طوائفُ من الناس ـ: [إن الله] خاتَنَ إلى الجنِّ، والملائكةُ من الجنِّ، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهاً له ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أي: بل هم عبادٌ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾[٥]. أي: ليس كما زَعَم هؤلاء الكفار.

---

(١) السبعة ص٤٢٨ ، والتيسير ص١٥٤ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٥٠ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٢ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٥٩ .

(٤) يشير المصنف إلى رواية ثانية من غير طريق معمر، كما في التعليق التالي.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٦/ ٢٥١ ، وما سلف بين حاصرتين منهما، وفيهما: وطوائف، بالواو. وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٥٠ من طريق سعيد عن قتادة دون قوله: أو طوائف من الناس، وفيه: صاهر الجن، بدل: خاتن إلى الجن.

ويجوز النَّصب عند الزجَّاج[١] على معنى: بل اتخذ عباداً مُكْرمين. وأجازه الفراء[٢] على أن يَرُدَّه على ولد، أي: بل لم نتَّخذهم ولداً، بل اتخذناهم عباداً مُكْرمين.

والولدُ هاهنا للجمع، وقد يكون الواحدُ[٣] والجمعُ وَلَداً[٤]. ويجوز أن يكون لفظُ الولد للجنس، كما يقال: لفلانٍ مالٌ.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون حتى يقول، ولا يتكلَّمون إلَّا بما يأمرهم. ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بطاعته وأوامره. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما عملوا وما هم عاملون؛ قاله ابن عباس[٥]. وعنه أيضاً: «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ»: الآخرة، «وَمَا خَلْفَهُمْ»: الدنيا[٦]؛ ذكر الأولَ الثَّعْلبيُّ، والثاني القُشَيريّ.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ قال ابن عباس: هم أهلُ شهادةِ أنْ لا إله إلا الله. وقال مجاهد: هم كلُّ مَن رضيَ الله عنه[٧]، والملائكة يشفعون غداً في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره[٨]، وفي الدنيا أيضاً؛ فإنهم يستغفرون للمؤمنين ولمن في الأرض، كما نصَّ عليه التنزيل على ما يأتي[٩]. ﴿وَهُم﴾ يعني الملائكة ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ يعني من خوفه ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون لا يأمَنون مَكْرَه.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٩. وقال الزجاج: ولو قرئت: بل عباداً، لم يجز لمخالفة المصحف.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٠١، ويعني النصب في اللغة، لا في التلاوة.

(٣) في (ظ): للواحد.

(٤) في (ظ) و(ف): أولاد، وفي (خ) و(د) و(ز): أولادا، والمثبت من (م). وينظر الصحاح (ولد).

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٣، والرازي ٢٢/ ١٦٠ بلفظ: يعلم ما قدَّموا وما أخروا من عملهم.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٣ عن الكلبي.

(٧) ذكر قول ابن عباس وقول مجاهد البغوي ٣/ ٢٤٢.

(٨) صحيح مسلم (١٨٣)، ومسند أحمد (١١٨٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مطولاً.

(٩) عند تفسير الآية (٧) من سورة غافر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ قال قتادة والضحاك وغيرهما: عنى بهذه الآية إبليس حيث ادَّعى الشركة، ودعا إلى عبادةِ نَفْسِه وكان من الملائكة، ولم يقل أحدٌ من الملائكة إنِّي إلهٌ غيره[١].

وقيل: الإشارةُ إلى جميع الملائكة، أي: فذلك القائلُ ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾. وهذا دليلٌ على أنَّهم وإن أُكرموا بالعصمة فهم متعبَّدون، وليسوا مضطرِّين إلى العبادة كما ظنَّه بعضُ الجُهَّال. وقد استدلَّ ابنُ عباس بهذه الآية على أنَّ محمداً ﷺ أفضلُ من[٢] أهل السماء. وقد تقدَّم في «البقرة»[٣].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كما جزينا هذا بالنار؛ فكذلك نجزي الظالمين الواضِعِين الأُلوهيةَ والعبادة في غير موضعهما.

**قوله تعالى:** ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قراءةُ العامة: ﴿أَوَلَمْ﴾ بالواو. وقرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وحميد وشِبل بن عبّاد: ﴿أَلَمْ يَرَ﴾ بغير واو[٤]، وكذلك هو في مصحف مكة[٥].

---

(١) أخرجه بنحوه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٣/ ٢٥٤ ، وأخرجه عن الضحاك ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣١٧ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٩ : وهذا ضعيف لأن إبليس لم يُرْوَ قطُّ أنه ادعى ربوبية.

(٢) قوله: من، من (ظ).

(٣) ٤/ ٢٥٥ .

(٤) السبعة ص٤٢٨ ، والتيسير ص١٥٥ عن ابن كثير.

(٥) المقنع لأبي عمرو الداني ص١٠٤ .

﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ بمعنى: يعلم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ قال الأخفش: قال: ﴿كَانَتَا﴾؛ لأنهما صنفان، كما تقول العرب: هما لِقَاحان أسودان[١]، وكما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] قال أبو إسحاق: قال: «كانتا»؛ لأنه يعبَّر عن السماوات بلفظِ الواحدِ بسماء؛ ولأن السماوات كانت سماءً واحدة، وكذلك الأرضون. [قال:] وقال: «رَتقاً» ولم يقل: رَتْقَيْن؛ لأنه مصدرٌ، والمعنى: كانتا ذواتَيْ رَتْقٍ. وقرأ الحسن: «رَتَقاً» بفتح التاء. قال عيسى بن عمر: هو صوابٌ وهي لغة[٢]. والرَّتْق: السدُّ، ضدُّ الفَتْق، وقد رَتَقْتُ الفَتْقَ أَرْتُقُه فارْتَتَق، أي: الْتأم، ومنه الرَّتْقاء للمنضمَّة الفَرْج[٣].

قال ابن عباس والحسن وعطاءٌ والضحَّاك وقتادة: يعني أنَّها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين، ففَصَل الله بينهما بالهواء[٤]. وكذلك قال كعب: خَلَقَ الله السماوات والأرضَ بعضَها على بعضٍ، ثم خلق ريحاً تَوسَّطَتْها[٥] ففتحها بها، وجعل السماواتِ سبعاً والأرضين سبعاً.

وقولٌ ثانٍ قاله مجاهد والسدِّيُّ وأبو صالح: كانت السماواتُ مؤتلفةً طبقةً واحدةً، ففتقها فجعلها سبعَ سماوات، وكذلك الأرضين كانت مُرْتَتِقةً طبقةً واحدةً، ففتقها فجعلها سبعاً[٦].

---

(١) لِقاح جمع لَقُحة، وهي الناقة القريبة العهد بالنِّتاج، أو الحلوب الغزيرة اللبن. معجم متن اللغة (لقح). وهذا من باب تثنية الجمع، مثل بُسْران وتمران، أي: ضربان مختلفان، وكذلك: إبِلان. الكتاب ٣/ ٦٢٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٩، وما سلف بين حاصرتين منه، وقول أبي إسحاق الزجاج في كتابه معاني القرآن ٣/ ٣٩٠، وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ٦٢. وهي في القراءات الشاذة ص٩١ عن أبي حيوة.

(٣) تهذيب اللغة ٩/ ٥٣ - ٥٤، والصحاح (رتق).

(٤) أخرجه عن ابن عباس والحسن وقتادة الطبري ١٦/ ٢٥٥ - ٢٥٦، وذكره البغوي ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣ عن ابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء.

(٥) في (م): بوسطها، وفي (ظ): متوسطتها. ووقع في مطبوع تفسير البغوي (والكلام منه) ٣/ ٢٤٣: فوسطها.

(٦) أخرجه عنهم الطبري ١٦/ ٢٥٦ - ٢٥٧، وذكره البغوي ٣/ ٢٤٣ عن مجاهد والسدي.

وحكاه القُتبيُّ في «عيون الأخبار» له، عن إسماعيل بن أبي خالد في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ قال: كانت السماء مخلوقةً وحدَها والأرضُ مخلوقةً وحدَها، ففتق من هذه سبعَ سماوات، ومن هذه سبعَ أرضين؛ خلق الأرضَ العليا فجعل سكَّانها الجنَّ والإنس، وشقَّ فيها الأنهارَ، وأنبتَ فيها الأثمار، وجعل فيها البحار، وسمَّاها رِعاء، عرضُها مسيرةُ خمسِ مئة عام. ثم خلق الثانيةَ مثلَها في العَرْض والغِلَظِ، وجعل فيها أقواماً؛ أفواهُهم كأفواه الكلاب، وأيديهم أيدي الناس، وآذانُهم آذانُ البقر، وشعورُهم شعورُ الغنم، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يَأْجوجَ ومأجوج، واسمُ تلك الأرض الدكماء[١]. ثم خلق الأرضَ الثالثة غِلَظُها مسيرةُ خمسِ مئة عام، ومنها هواءٌ إلى الأرض. الرابعةُ خَلَقَ فيها ظلمةً وعقاربَ لأهل النار مثلَ البغال السُّود، ولها أذنابٌ مثلُ أذناب الخيل الطِّوال، يأكل بعضُها بعضاً فتسلَّط[٢] على بني آدم. ثم خلق الله الخامسةَ مثلَها[٣] في الغلظِ والطول والعرض، فيها سلاسلُ وأغلالٌ وقيودٌ لأهل النار. ثم خلق الله الأرضَ السادسة واسمُها ماد، فيها حجارةٌ سُودٌ بُهْم، ومنها خُلقت تربة آدمَ عليه السلام، تُبعث تلك الحجارةُ يومَ القيامة، وكلُّ حجرٍ منها كالطَّوْد العظيم، وهي من كبريتٍ، تُعلَّقُ في أعناق الكفار، فتشتعل حتى تُحرقَ وجوههم وأيديَهم، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، والتحريم: ٦]. ثم خلق الله الأرض السابعة واسمُها عربية وفيها جهنم، فيها بابان[٤]؛ اسمُ الواحد: سجِّين، واسمُ الآخَرِ: الغَلَق، فأمَّا سجِّين فهو مفتوحٌ وإليه ينتهي كتابُ الكفار، وعليه يُعرض أصحاب المائدة وقومُ فرعون، وأمَّا الغَلق فهو مُغلقٌ لا يُفتح إلى يوم القيامة[٥].

---

(١) في (ز) و(ف): الركما، وفي (د): الوكما، وفي (ظ): الرخاء، ولم تجود في (خ)، والمثبت من (م).

(٢) في (ظ): تتسلط.

(٣) في (ظ): كهن، والمثبت من (ز)، وسقطت من باقي النسخ.

(٤) في (ز) و(ظ): وفيها.

(٥) لم نقف عليه.

وقد مضى في «البقرة»[١] أنها سبعُ أرضين بين كلِّ أرضَيْن مسيرةُ خمس مئة عام، وسيأتي له في آخِرِ «الطلاق» زيادةُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

وقول ثالث قاله عكرمةُ وعطية وابن زيد، وابنُ عباس أيضاً فيما ذكر المَهْدَويُّ: إنَّ السماوات كانت رتقاً لا تُمْطِر، والأرض كانت رتقاً لا تُنْبِت، ففَتَقَ السماءَ بالمطر، والأرضَ بالنبات[٢]؛ نظيره قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١-١٢]. واختار هذا القولَ الطبريُّ[٣]؛ لأنَّ بعده: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قلت: وبه يقع الاعتبارُ مشاهَدةً ومُعاينة، ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية؛ ليدلَّ على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء. وقيل:

يَهونُ عليهم إذا يَغضبو نَ سُخْطُ العُدَاةِ وإرغامُها
ورَتْقُ الفُتوق وفَتْقُ الرُّتو ق ونَقْضُ الأمورِ وإبرامُها[٤]

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ثلاثُ تأويلات:

أحدُها: أنه خَلَق كلَّ شيءٍ من الماء؛ قاله قتادة.

الثاني: حَفِظَ حياةَ كلِّ شيءٍ [حيٍّ] بالماء.

الثالث: وجَعَلْنا من ماء الصُّلْب كلَّ شيءٍ حيٍّ؛ قاله قطرب[٥].

«وجعلنا» بمعنى: خلقنا. وروى أبو حاتم البُسْتِيُّ في المسند الصحيح له من

---

(١) ١/ ٣٨٧.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٤٤، وأخرج قول عكرمة وعطية وابن زيد الطبري ١٦/ ٢٥٧، وأخرجه عن ابن عباس الحاكم ٢/ ٣٨٢، وفيه طلحة بن عمرو، قال عنه الذهبي في التلخيص: واه.

(٣) في تفسيره ١٦/ ٢٥٩.

(٤) قائلهما عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كما في الحماسة البصرية ١/ ١٣٢، والنكت والعيون ٣/ ٤٤٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٤٤ وما سلف بين حاصرتين منه، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٦٠ بلفظ: كلُّ شيءٍ حيٍّ خلق من الماء.

حديث أبي هريرةَ قال: قلتُ: يا رسول الله، إذا رأيتُك طابت نفسي، وقَرَّتْ عيني؛ أنبِئْني عن كلِّ شيء؟ قال: «كلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء» الحديث؛ قال أبو حاتم: قولُ أبي هريرة: أنبئني عن كلِّ شيء، أراد به عن كلِّ شيءٍ خُلق من الماء، والدليلُ على صحة هذا جوابُ المصطفى إياه حيث قال: «كلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء» [فهذا جوابٌ خرج على سؤالٍ بعَيْنِه، لا أنَّ كلَّ خَلْقٍ من الماء] وإن لم يكن مخلوقاً[١].

وهذا احتجاجٌ آخَرُ سوى ما تقدَّم من كَوْن السماوات والأرضِ كانتا[٢] رَتْقاً.

وقيل: الكلُّ قد يُذْكَر بمعنى البعض، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقولِه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والصحيحُ العمومُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ شيءٍ خُلق من الماء» والله أعلم.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدِّقون بما يُشاهِدون، وأنَّ ذلك لم يكن بنفسه، بل بمكوِّنٍ[٣] كوَّنه، ومدَبِّرٍ أَوْجَدَه، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوِّن مُحْدَثاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثَوابِت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلَّا تميدَ بهم ولا تتحرَّكَ؛ ليتمَّ القرارُ عليها؛ قاله الكوفيون. وقال البصريُّون: المعنى: كراهيةَ أن تميد. والمَيْدُ: التحرُّك والدوران. يقال: ماد رأسه، أي: دار. وقد مضى في «النحل» مستوفًى[٤].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ يعني في الرَّواسي؛ عن ابن عباس[٥]. والفِجاجُ: المسالك. والفَجُّ: الطريقُ الواسع بين الجبلين.

وقيل: وجعلنا في الأرض فِجاجاً، أي: مسالكَ، وهو اختيار الطبري[٦]؛

---

(١) صحيح ابن حبان (٢٥٥٩)، وما بين حاصرتين منه، وسلف ١/ ٣٨٥.

(٢) قوله: كانتا، من (ظ).

(٣) في (م): لمكون.

(٤) ١٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٢.

(٦) في تفسيره ١٦/ ٢٦٢.

لقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: يهتدون إلى السير في الأرض.

﴿سُبُلًا﴾ تفسير الفِجاج؛ لأنَّ الفَجَّ قد يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً وقد لا يكون. وقيل: ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي: محفوظاً من أن يقع ويسقط على الأرض، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥][(١)].

وقيل: محفوظاً بالنجوم من الشياطين؛ قاله الفرَّاء[(٢)]، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

وقيل: محفوظاً من الهَدْم والنَّقْض[(٣)]، وعن أن يبلغه أحدٌ بحيلة. وقيل: محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد.

وقال مجاهد: مرفوعاً. وقيل: محفوظاً من الشرك والمعاصي[(٤)].

﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ قال مجاهد: يعني الشمسَ والقمر [والنجوم][(٥)]. وأضاف الآياتِ إلى السماء لأنها مجعولةٌ فيها، وقد أضاف الآياتِ إلى نفسه في مواضع؛ لأنه الفاعلُ لها. بيَّن أنَّ المشركين غَفَلُوا عن النظر في السماوات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسِها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى؛ إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أنَّ لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل[(٦)] أن يكون له شريك.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٦٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٣ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٠١ .

(٣) في (د) و(ف): والنقص.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٤٥ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٣ .

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٦) في (م): فيستحيل.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ذَكَّرهم نعمةً أخرى؛ أنْ[١] جَعَل لهم الليلَ ليسكنوا فيه، والنهارَ ليتصرَّفوا فيه لمعايشهم. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: وجَعَل الشمسَ آيةَ النهار، والقمرَ آيةَ الليل؛ لتُعلَم الشهورُ والسِّنونَ والحسابُ، كما تقدَّم في «سبحان» بيانُه[٢].

﴿كُلٌّ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَجْرُون ويسيرون بسرعةٍ؛ كالسابح في الماء[٣]. قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣] ويقال للفرس الذي يَمدُّ يده في الجَرْي: سابح[٤].

وفيه من النَّحْو أنه لم يقل: يَسْبَحْن، ولا تَسبح؛ فمذهب سيبويه: أنه لمَّا أخبر عنهنَّ بفعلِ مَن يَعْقِلُ وجَعَلهنَّ في الطاعة بمنزلةِ مَن يعقل، أخبر عنهنَّ بالواو والنون. ونحوَه قال الفرَّاء[٥]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يوسف»[٦].

وقال الكسائيُّ: إنَّما قال: «يَسْبَحون» لأنه رأسُ آية، كما قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤] ولم يقل: منتصرون[٧].

وقيل: الجريُ للفَلَكِ، فنسب إليها. والأصحُّ أنَّ السيارة تجري في الفَلَك، وهي سبعةُ أفلاكٍ دون السماواتِ المطبقة التي هي مجالُ الملائكة وأسباب الملكوت. فالقمرُ في الفَلَكِ الأدنى، ثُمَّ عُطَارِد، ثم الزُّهَرَة، ثم الشمس، ثم المِرِّيخ، ثم المُشْتَري، ثم زُحَل، والثامنُ فَلَكُ البروج، والتاسعُ الفَلَكُ الأعظم.

---

(١) لفظة «أن» من (ظ).

(٢) ١٣/ ٣٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٣.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٦، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠١، وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٤٧.

(٦) ١١/ ٢٤٧.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٦.

والفَلَكُ واحدُ أفلاكِ النجوم. قال أبو عمرو: ويجوز أن يُجمع على فُعْلٍ، مثل: أَسَدٍ وأُسْد، وخَشَبٍ وخُشْب. وأصلُ الكلمة من الدوران، ومنه فَلْكةُ المِغزل لاستدارتها. ومنه قيل: فَلَّك ثَدْيُ المرأة تفليكاً، وتَفلَّك: استدار[1]. وفي حديث ابن مسعود: تركتُ فرسي كأنه يدور في فَلَك. كأنه لدورانه شبَّهه بفَلَكِ السماء الذي تدور عليه النجوم[2].

قال ابن زيد: الأفلاك مجاري النجومِ والشمسِ والقمر، قال: وهي بين السماء والأرض[3].

وقال قتادة: الفَلَكُ استدارةٌ في السماء تدور [فيها] النجوم[4] مع ثبوت السماء.

وقال مجاهد: الفَلَكُ كهيئة حديدة الرَّحى وهو قُطْبُها. وقال الضحاك: فَلَكُها: مَجراها وسرعةُ سَيْرِها. وقيل: الفَلَكُ موجٌ مكفوف، ومجرى الشمسِ والقمر فيه[5]؛ والله أعلم.

**قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أي: دوامَ البقاءِ في الدنيا؛ نزلت حين قالوا: نتربَّص بمحمدٍ رَيْبَ المَنُون[6]. وذلك أنَّ المشركين كانوا يدفعون نبوَّته

---

(١) الصحاح (فلك).

(٢) تهذيب اللغة ١٠/ ٢٥٦ ، وأخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٩٦ ، وهو فيهما بلفظ: أن رجلاً أتى رجلاً وهو جالس عند عبد الله، فقال: إني تركت فرسك يدور كأنه في فلك...، وأخرجه بنحوه مطولاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٨٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٦ .

(٤) في النسخ عدا (ط): بالنجوم، والمثبت من (ظ) والنكت والعيون ٣/ ٤٤٦ ، والكلام وما بين حاصرتين منه، وينظر تفسير الطبري ١٦/ ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٦) الوسيط ٣/ ٢٣٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٤ .

ويقولون: شاعرٌ نتربَّص به رَيْبَ المنون، ولعلَّه يموت كما مات شاعرُ بني فلان، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولَّى الله دينَه بالنصر والحِياطة، فهكذا نحفظ دينك وشَرْعك. ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي: أَفَهُم، مثل قول الشاعر:

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيلِدُ لم[1] تُرَعْ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ[2]

أي: أهم؟! فهو استفهامُ إنكار.

وقال الفرَّاء: جاء بالفاء ليدلَّ على الشَّرط؛ لأنه جوابُ قولهم: سيموت[3]. ويجوز أن يكون جيء بها؛ لأنَّ التقدير فيها: أَفَهُم الخالدون إنْ متَّ! قال الفرَّاء: ويجوز حذفُ الفاء وإضمارُها؛ لأنَّ «هم» لا يتبيَّن فيها الإعراب[4]. أي: إن متَّ فهم يموتون أيضاً، فلا شماتةَ في الإماتة.

وقُرئ: «مِتَّ» و«مُتَّ» بكسر الميم وضمِّها لغتان[5].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[6] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ «فِتْنَةً» مصدرٌ على غير اللفظ. أي: نختبركم بالشدَّة والرخاء والحلالِ والحرام، لننظر كيف شكركم وصبرُكم. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: للجزاء بالأعمال.

**قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما

---

(١) في (م): لا، وهي رواية أخرى للبيت.

(٢) قائله أبو خراش، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ١٤٤، وسلف ٦/ ٤٦٩، و ٨/ ٤٤٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٠، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٢، وهو أيضاً قول الطبري في التفسير ١٦/ ٢٦٨، ونصه: دخلت الفاء في الجزاء وهو «إن» وفي جوابه؛ لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت الفاء في قوله «فهم» لأنه جواب للجزاء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٦٨.

(٥) قرأ بضم الميم: ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر، والباقون بكسرها. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.

(٦) ٥/ ٤٤٧.

يتَّخذونك. والهزءُ: السخريَة، وقد تقدَّم[١]. وهم المستهزئون المتقدِّمو الذكرِ في آخر سورة الحجر، في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الآية: ٩٥]. كانوا يَعيبون مَن جَحَد إلهيةَ أصنامِهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن! وهذا غايةُ الجهل.

﴿أَهَٰذَا الَّذِي﴾ أي: يقولون: أهذا الذي؟ فأضمر القول، وهو جواب «إذا»، وقولُه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كلامٌ معترِضٌ بين «إذا» وجوابِه.

﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: بالسوء والعيب، ومنه قول عَنْتَرة:

لا تَـذْكُـري مُـهْـري ومـا أطـعـمـتُـه فيكونَ جِلْدُكِ مثلَ جِلْدِ الأَجْرَبِ[٢]

أي: لا تعيبي مُهري.

﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بالقرآن ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ «هم» الثانية توكيدُ كفرِهم، أي: هم الكافرون؛ مبالغةً في وَصْفِهم بالكفر.

**قوله تعالى:** ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: رُكِّب على العَجَلة فخلق عَجُولاً، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] أي: خلق الإنسان ضعيفاً، ويقال: خُلِق الإنسان من الشرّ، أي: شرِّيراً، إذا بالغتَ في وصفه به[٣]. ويقال: إنما

---

(١) ١/ ٣١٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٣، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٨٩، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٤٠٩، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٣١٧ لخُزَز بن لَوْذان، وحكى البغدادي في الخزانة ٦/ ١٩٠ عن الصاغاني أن البيت موجود في ديوان أشعار عنترة وخزز، ومعناه ـ كما ذكر البغدادي ـ أنه يقول لزوجته: لا تلوميني في إيثار فرسي فأبغضك وأهجر مضجعك وأتحاماك كما يُتحامى الأجرب من الإبل، وقيل: معناه أضربك فيبقى أثر الضرب عليك كالجرب.

(٣) هذا قول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٩٢، وقال: إنما خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر الشيء: خلقت منه.

أنت ذهابٌ ومجيء. أي: ذاهب جائي[١]. أي: طَبْعُ الإنسانِ العجلة، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مُضِرَّة.

ثم قيل: المرادُ بالإنسانِ آدمُ عليه السلام. قال سعيد بن جبير والسدِّي: لمَّا دخل الروحُ في عينَيْ آدمَ عليه السلام نظر في ثمار الجنة، فلمَّا دخل جوفَه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروحُ رجليه عجلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك قولُه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[٢].

وقيل: خُلق آدمُ يومَ الجمعة في آخر النهار، فلمَّا أحيا الله رأسه استعجل، وطلب تتميمَ نفخِ الروح فيه قبل غروب الشمس؛ قاله الكلبيُّ ومجاهدٌ وغيرهما[٣].

وقال أبو عبيدة وكثيرٌ من أهل المعاني: العَجَل: الطين بلغة حِمْيَر، وأنشدوا:

والنخلُ يَنبتُ بين الماءِ والعَجَلِ[٤]

وقيل: المرادُ بالإنسان الناسُ كلُّهم.

وقيل: المراد: النَّضْرُ بن الحارِث بن علقمةَ بن كلدة بن عبد الدار؛ في تفسير ابن عباس[٥]، أي: لا ينبغي لمن خُلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله.

وقيل: إنه من المقلوب، أي: خُلق العَجَلُ من الإنسان. وهو مذهبُ أبي

---

(١) في (ظ): وجائي.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤ ، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٧١ .

(٣) أخرجه عن مجاهد ابنُ أبي شيبة ١٤/ ١١٥ ، والطبري ١٦/ ٢٧٢ ، وذكره عن الكلبيِّ الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٤٤٧ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٨٢ : هذا قول ضعيف، ومعناه لا يناسب معنى الآية.

(٤) وصدره: والنبعُ في الصخرة الصمَّاء مَنْبَتُه، وهو في تهذيب اللغة ١/ ٣٦٩ والنكت والعيون ٣/ ٤٤٧ ، والكشاف ٢/ ٥٧٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٢ ، ومجمع البيان ١٧/ ٢٧ ، واللسان (عجل). قال ابن عطية: وهذا أيضاً ضعيف، ومعناه مباينٌ لمعنى الآية.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٧٣ ، وزاد المسير ٥/ ٣٥١ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٧١ ، ومجمع البيان ١٧/ ٢٧ .

عبيدة[١]. النحاس: وهذا القول لا ينبغي أن يجاب[٢] به في كتاب الله؛ لأنَّ القَلْبَ إنما يقع في الشعر اضطراراً كما قال:

كما كان الزِّنَاءُ فريضةَ الرَّجْم[٣]

ونظيرُه هذه الآية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقد مضى في «سبحان».

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ هذا يقوِّي القولَ الأول، وأنَّ طَبْعَ الإنسان العَجَلة، وأنه خُلق خلقاً لا يتمالك، كما قال عليه الصلاة والسلام، حَسْبَ ما تقدم في «سبحان»[٤].

والمرادُ بالآيات: ما دلَّ على صِدْقِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة. وقيل: ما طلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وما علموا أنَّ لكلِّ شيءٍ أجلاً مضروباً. نزلت في النضر بن الحارثِ وقوله: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢][٥].

وقال الأخفش سعيد: معنى «خلِق الإنسان مِن عَجَلٍ» أي: قيل له: كن، فكان[٦]. فمعنى «فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» على هذا القول: أنه مَن يقول للشيء: كن، فيكون، لا يُعْجِزُه إظهارُ ما استعجلوه من الآيات.

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٣٨ - ٣٩.

(٢) في (ظ): يجاء.

(٣) وتمامه: كانت فريضةَ ما أَتَيْتَ كما...، والبيت للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢٣٥، وقال الطبري ١٦/ ٢٧٤: وفي إجماع أهل التأويل على خلاف هذا القول الكفايةُ المغنية عن الاستشهاد على فساده بغيره.

(٤) ١٣/ ٣٥ - ٣٦.

(٥) سلف قريباً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكر هذا القول عن الأخفش الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٢٧ والرازي في تفسيره ٢٢/ ١٧٢، وذكره الطبري ١٦/ ٢٧٣ عن بعض أهل العربية من أهل البصرة، ولم يسمِّه. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٢: وهذا أيضاً ضعيف، وفيه تخصيصُ ابن آدم بشيءٍ كلُّ مخلوقٍ يشاركه فيه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الموعود، كما يقال: الله رجاؤنا، أي: مَرْجُوُّنا. وقيل: معنى «الوعد» هنا: الوعيد، أي: الذي يَعِدُنا من العذاب. وقيل: القيامة.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يا معشر المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ العلمُ هنا بمعنى المعرفة، فلا يقتضي مفعولاً ثانياً، مثل: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وجوابُ «لو» محذوف، أي: لو علموا الوقت الذي ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وعَرَفوه، لَمَا استعجلوا الوعيد[١]. وقال الزجاج[٢]: أي: لعلموا صِدْقَ الوعد.

وقيل: المعنى: لو علموه لَمَا أقاموا على الكفر، ولآمنوا[٣].

وقال الكسائيُّ: هو تنبيهٌ على تحقيق وقوعِ الساعة، أي: لو علموه عِلْمَ يقينٍ لعلموا أنَّ الساعة آتيةٌ، ودل عليه: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة. يعني القيامة، وقيل: العقوبة، وقيل: النار، فلا يتمكَّنون من حيلة.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ قال الجوهريّ[٤]: بَهَتَه بَهْتاً: أَخَذَه بغتة؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾.

وقال الفراء: «فتبهتُهم» أي: تحيِّرهم؛ يقال: بَهَتَه يبهته: إذا واجهه بشيء يحيِّره[٥]. وقيل: فتَفْجَأُهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: صَرْفَها عن ظهورهم. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون[٦] ويؤخَّرون لتوبةٍ واعتذار.

---

(١) الوسيط ٣/ ٢٣٨ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٣ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٦ .

(٤) في الصحاح (بهت).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٣٨ ، دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٦) في (م): أي لا يمهلون.

**قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ له[١]. يقول: إن استَهزأ بك هؤلاء، فقد استُهزئ بمَن قبلك من الرسل[٢]، فاصبر كما صبروا. ثم وَعَدَه النصرَ فقال: ﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاط ودار ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ كفروا و﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ وهَزَؤوا بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاءُ استهزائهم.

**قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: يحرسُكم ويحفظُكم. والكِلَاءة: الحِراسةُ والحفظ؛ كَلَأَه الله كِلَاءة[٣] ـ بالكسر ـ أي: حَفِظَه وحَرَسَه. يقال: اذهب في كِلاءة الله، واكتلأتُ منهم: احترست[٤]؛ قال الشاعر؛ هو ابنُ هَرْمة[٥]:

إنَّ سُلَيْمى واللهُ يَكْلؤُهَا ضَنَّتْ بشيءٍ ما كان يَرْزَؤُها

وقال آخر:

أَنَخْتُ بَعِيري واكْتَلَأْتُ بعَيْنِهِ[٦]

---

(١) في (ظ): وتقوية.

(٢) في (م): فقد استهزئ برسل من قبلك.

(٣) في (م): كِلاءً، وكلاهما صحيح. القاموس كلأ.

(٤) الصحاح (كلأ).

(٥) ديوانه ص٥٥ ، ومجاز القرآن ٢/ ٣٩ . وابنُ هَرْمة: هو إبراهيم أبو إسحاق، آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم، وكان من مخضرمي الدولتين، مدح الوليد بن يزيد ثم أبا جعفر المنصور، وكانت وفاته في خلافة الرشيد بعد (١٥٠هـ). الخزانة ١/ ٤٢٥ .

(٦) الصحاح (كلأ)، وقائله كعب بن زهير، وهو في ديوانه ص٨٠ برواية: =

وحكى الكسائيُّ والفراء: «قل مَن يَكْلَوُكُمْ» بفتح اللام وإسكان الواو. وحَكَيا: «مَن يَكْلَاكُمْ»، على تخفيف الهمزة في الوجهين، والمعروفُ تحقيقُ الهمزة، وهي قراءةُ العامَّة[١]. فأما «يَكْلَاكُم» فخطأٌ من وجهين فيما ذكره النحاس[٢]؛ أحدهما: أنَّ بدل الهمزة إنما يكون[٣] في الشعر. والثاني: أنَّهما يقولان في الماضي: كَلَيْتُه، فينقلب المعنى؛ لأنَّ كَلَيته: أوجعتُ كُلْيتَه، ومَن قال لرجل: كَلَاك الله، فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع في كُلْيته.

ثم قيل: مخرجُ اللفظ مخرجُ الاستفهام، والمرادُ به النَّفْيُ، وتقديره: قل: لا حافظَ لكم ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ إذا نمتم ﴿و﴾ بـ ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ إذا قمتم وتصرَّفتم في أموركم ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من عذابه وبأسه[٤]، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٣] أي: من عذاب الله. والخطابُ لمن اعترف منهم بالصانع، أي: إذا أَقْرَرْتم بأنه الخالق، فهو القادرُ على إحلال العذاب الذي تستعجلونه.

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ أي: عن القرآن. وقيل: عن مواعظ ربِّهم. وقيل: عن معرفته. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: لاهون غافلون.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ المعنى: ألهم، والميمُ صلة[٥]. ﴿تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أي: من عذابنا. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني الذين زعم هؤلاء الكفارُ أنهم ينصرونهم، لا يستطيعون ﴿نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾، فكيف ينصرون عابِديهم؟ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: يُمنَعون[٦]. وعنه: يُجَارُون[٧]، وهو اختيارُ

---

= أنخت قَلُوصي واكتلأت بعينها وآمرْتُ نفسي أيَّ أمريَّ أفعل

وكذا ذكره الزمخشري في أساس البلاغة (كلأ) وقال: أي: احترستُ بعينها؛ لأنها إذا رأت شيئاً ذُعرت.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧١، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٤، وذَكَر الفراء أن هذين الوجهين في غير القرآن.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٧١.

(٣) في إعراب القرآن: إنما يجوز.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٨، والنكت والعيون ٣/ ٤٤٨.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٨، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٧٤.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٥.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٨٠.

الطبريّ[١]. تقول العرب: أنا لك جارٌ وصاحبٌ من فلان، أي: مجيرٌ منه؛ قال الشاعر:

يُنادِي بأعلى صوتِه متعوِّذاً ليُصحَبَ منها والرِّماحُ دَوَاني[٢]

وروى معمرٌ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: «يُنْصَرُونَ» أي: يُحفظون[٣]. قتادة: أي: لا يَصْحَبهم الله بخير[٤]، ولا يجعلُ رحمتَه صاحباً لهم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد أهلَ مكة. أي: بَسَطْنا لهم ولآبائهم في نعيمها و﴿طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ في النعمة، فظنوا أنَّها لا تزول عنهم، فاغترُّوا وأعرضوا عن تدبُّر حُججِ الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي: بالظهور عليها لك يا محمدُ أرضاً بعد أرضٍ، وفَتْحِها بلداً بعد بلدٍ ممَّا حَوْلَ مكة؛ قال معناه الحسنُ وغيره. وقيل: بالقتل والسَّبي؛ حكاه الكلبيّ. والمعنى واحد، وقد مضى في «الرعد» الكلامُ في هذا مستوفى[٥].

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ـ يعني كفارَ مكةَ ـ بعد أن نَقَصْنا من أطرافهم؟ بل أنت تغلبهم وتظهرُ عليهم.

**قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ أي: أخوِّفكم وأحذِّركم بالقرآن ﴿وَلَا

(١) في تفسيره ١٦/ ٢٨١ .

(٢) ذكره الشوكاني في فتح القدير ٣/ ٤٠٩ ، وفيه: ليصحب منا...

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٤ ، والطبري ١٦/ ٢٨٠ .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٥) ١٢/ ٩٥ - ٩٦ ، وقول الحسن وقول الكلبي ذكرهما أبو الليث ٢/ ٣٦٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٩ .

﴿يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: مَن أَصَمَّ الله قلبَه، وخَتَم على سَمْعِه، وجَعَل على بصره غشاوةً، عن فَهْمِ الآيات وسماع الحقّ.

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ ومحمد بن السَّمَيفع: «ولا يُسْمَعُ»؛ بياءٍ مضمومةٍ وفتحِ الميم على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ «الصُّمُّ» رفعاً[١]، أي: إنَّ الله لا يُسمعهم.

وقرأ ابن عامر والسُّلَميُّ أيضاً، وأبو حَيْوَةَ ويحيى بنُ الحارِث: «ولا تُسْمِعُ»؛ بتاءٍ مضمومةٍ وكَسْرِ الميم؛ «الصُّمَّ» نصباً[٢]، أي: إنك يا محمدُ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ، فالخطابُ للنبيِّ ﷺ. وردَّ هذه القراءةَ بعضُ أهل اللغة. وقال: كان يجب أن يقول: إذا ما تنذرهم. قال النحاس[٣]: وذلك جائز؛ لأنه قد عُرِف المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: طَرَفٌ[٤]. قال قتادة: عقوبة[٥]. ابن كيسان: قليل[٦] وأدنى شيء، مأخوذٌ من نَفْح المسك؛ قال:

وعَمْرةُ من سَرَواتِ النِّسا ... ء تَنْفَحُ بالمسكِ أرْدانُها[٧]

ابن جريج: نصيبٌ، كما يقال: نَفَحَ فلانٌ لفلانٍ من عطائه: إذا أعطاه نصيباً من المال[٨]؛ قال الشاعر:

لَمَّا أتيتُك أرجو فَضْلَ نائِلِكُمْ ... نَفَحْتني نَفْحةً طابتْ لها العَرَبُ[٩]

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٢٨٣ ، عن السلمي، والقراءات الشاذة ص٩١ عن الحسن.

(٢) السبعة ص٤٢٩ ، والتيسير ص١٥٥ عن ابن عامر، وذكرها عن السلمي الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٠٥ ، والنحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٧٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٦ .

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٨٤ .

(٦) الوسيط ٣/ ٢٣٩ .

(٧) قائله قيس بن الخطيم كما في الأغاني ٢/ ٤٢٧ - ٤٢٨ ، وجمهرة اللغة ٢/ ٢٥٧ ، واللسان (ردن)، وهو بلا نسبة في الصحاح (ردن).

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٦ .

(٩) البيت لابن ميادة؛ قاله في مدح الوليد بن يزيد، وهو بهذه الرواية في الصحاح (نفح)، وهو في =

أي: طابت لها النفس.

والنفحةُ في اللغة: الدفعةُ اليسيرة؛ فالمعنى: ولئن مسَّهم أقلُّ شيءٍ من العذاب ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: متعدِّين، فيعترفون حين لا ينفعُهم الاعتراف.

**قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾**

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ الموازينُ جمعُ ميزان. فقيل: إنه يدلُّ بظاهره على أنَّ لكلِّ مكلَّفٍ ميزاناً توزن به أعمالُه، فتوضع الحسنات في كِفّة، والسيِّئاتُ في كِفّة.

وقيل: يجوز أن يكون هناك موازينُ للعامل الواحد، يوزن بكلِّ ميزانٍ منها صنفٌ من أعماله، كما قال:

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ لعَدْلِه ... فلكلِّ حادثةٍ لها ميزانُ[1]

ويمكن أن يكون ميزاناً واحداً عبّر عنه بلفظ الجمع. وخرَّج اللَّالَكائيُّ الحافظُ أبو القاسم في «سننه» عن أنس يرفعه: «إنَّ مَلَكاً موكَّلٌ بالميزان، فيؤتَى بابن آدمَ فيوقَفُ بين كِفَّتي الميزان، فإنْ رَجَح؛ نادى الملكُ بصوتٍ يُسمِعُ الخلائقَ: سَعِد فلانٌ سعادةً لا يَشْقَى بعدها أبداً، وإنْ خفَّ نادى الملك: شَقِيَ فلانٌ شقاوةً لا يَسْعدُ بعدها أبداً»[2].

---

= ديوانه برواية:

لمَّا أتيتُكَ من نجدٍ وساكنه ... نَفَحْتَ لي نفحةً طارت بها العرب

(١) لم نقف عليه.

(٢) شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٢٢٠٥)، وأخرجه أيضاً الحارث (١١٢٥ - بغية الباحث)، والبزار (٣٤٤٥ - كشف)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٧٤ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٠ : فيه صالح المري، وهو مجمع على ضعفه. واللالكائي هو هبة الله بن الحسن بن منصور، الطبري الرازي الشافعي، الحافظ المفتي، توفي سنة (٤١٨هـ). السير ١٧/ ٤١٩ .

وخرَّج عن حذيفةَ ﷺ قال: «صاحبُ الميزان يومَ القيامة جبريلُ عليه السلام»[١].

وقيل: للميزان كِفَّتان، وخيوطٌ، ولسانٌ، والشاهين[٢]، فالجمع يرجع إليها.

وقال مجاهد وقتادة والضحاك: ذِكْرُ الميزان مَثَلٌ، و ليس ثَمَّ ميزانٌ، وإنما هو العدل[٣]. والذي وردت به الأخبارُ، وعليه السوادُ الأعظم، القولُ الأوّل.وقد مضى في «الأعراف» بيانُ هذا، وفي «الكهف» أيضاً[٤]. وذكرناه في كتاب «التذكرة»[٥] مستوفًى والحمد لله.

و«القِسط»: العدل، أي: ليس فيها بَخْسٌ ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا. و«الْقِسْطَ» صفةُ الموازين، ووحّد لأنه مصدر؛ يقال: ميزانٌ قِسْطٌ، وميزانان قِسْطٌ، وموازينُ قِسْطٌ. مثل: رجالٌ عَدْلٌ ورضاً[٦].و قرأت فرقة: «الْقِصْطَ»، بالصاد[٧].

﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: لأهل يوم القيامة. وقيل: المعنى: في يوم القيامة .﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يُنْقَصُ من إحسان مُحْسِنٍ، ولا يزاد في إساءة مسيء.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبةُ وأبو جعفر: ﴿مِثْقالُ حبةٍ﴾

---

(١) شرح أصول الاعتقاد (٢٢٠٩) من طريق يوسف بن صهيب، عن موسى بن أبي المختار، عن بلال العبسي، عن حذيفة. وموسى بن أبي المختار مجهول، تفرد بالرواية عنه يوسف بن صهيب، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان. ينظر حاشية الحديث (٢٣٢٦٦) من مسند أحمد . وينظر ما سلف ٩/ ١٥٩ .

(٢) الشاهين: عمود الميزان. القاموس (شهن). قال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/ ٦٥ : وأمور الآخرة لا تُعلم إلا بما جاء في القرآن، أو بما جاء عن رسول الله ﷺ، ولم يأت عنه عليه الصلاة والسلام شيء يصح في صفة الميزان. فنقطع على أن الموازين توضع يوم القيامة لوزن أعمال العباد، ونقطع على أن تلك الموازين أشياء يبين الله عزَّ وجلَّ بها لعباده مقادير أعمالهم من خير وشر.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧٦ ، وأخرجه عن مجاهد عبد الرزاق ٢/ ٢٤ ، والطبري ١٦/ ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٤) ٩/ ١٥٦ - ١٦٠ ، و١٣/ ٣٩٥ .

(٥) ص٣٠٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٤ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٨٥ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٨٥ ، والبحر ٦/ ٣١٦ دون نسبة.

بالرفع هنا وفي «لقمان»، على معنى: إنْ وقع أو حضر، فتكون «كان» تامةً، ولا تحتاج إلى خبر. الباقون: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصب[١]، على معنى: وإن كان العملُ أو ذلك الشيءُ مثقالَ. ومثقالُ الشيء: ميزانُه من مِثْلِه.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ مقصورةَ الألف قراءةُ الجمهور، أي: أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها. و«بها» أي: بالحبة[٢]، ولو قال به ـ أي: بالمثقال ـ لجاز. وقيل: مثقالُ الحبة ليس شيئاً غيرَ الحبة، فلهذا قال: «أَتَيْنَا بِهَا».

وقرأ مجاهد وعكرمةُ: «آتَيْنَا» بالمدِّ، على معنى: جازَيْنا بها[٣]، يقال: آتى يؤاتي مؤاتاة.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ أي: محاسبين على ما قدَّموه من خيرٍ وشرّ. وقيل: «حاسِبِين» أي[٤]: لا أحدَ أسرعُ حساباً منا. والحسابُ: العدّ. روى الترمذيُّ عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رجلاً قعد بين يدي النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنَّ لي مملوكِينَ يكذبونني ويخونونني ويَعْصونني، وأشتُمهم وأضربُهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «يُحسَبُ ما خانوك وعَصَوْك وكذبوك وعقابُكَ إيَّاهم، فإن كان عقابُك إيَّاهم بقَدْر ذنوبهم كان كَفَافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إيَّاهم دونَ ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك [إيَّاهم] فوق ذنوبهم اقتُصَّ لهم منك الفضلُ». قال: فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف. فقال رسول الله ﷺ: «أمَا تقرأ كتاب الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾؟» فقال الرجل: والله يا رسول

(١) السبعة ص٤٢٩ ، والتيسير ص١٥٥ ، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن نافع وأبي جعفر، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١١١ .

(٢) في (م): للمجازاة عليها ولها يجاء بها أي بالحبة.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٥ عن مجاهد، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٦٣ عن مجاهد وابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهم، ولم نقف عليها عن عكرمة.

(٤) في النسخ عدا (ظ): إذ، والمثبت من (ظ).

الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم، أُشْهِدكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهم. قال: حديث غريب[١].

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ وحُكي عن ابن عباس وعكرمة: «الفُرْقانَ ضياءً» بغير واو على الحال[٢]. وزعم الفرَّاء أنَّ حَذْفَ الواو والمجيءَ بها واحد، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا﴾ [الصافات: ٦-٧] أي: حفظاً. وردَّ عليه هذا القولَ الزجَّاجُ؛ قال: لأنَّ الواو تجيءُ لمعنًى فلا تُزاد، قال: وتفسيرُ «الفرقان»: التوراة؛ لأنَّ فيها الفرقَ بين الحلال والحرام. قال: «وَضِيَاءً» مثل: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦][٣].

وقال ابن زيد: «الفرقان» هنا: هو النصرُ على الأعداء، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يعني يومَ بدر[٤].

قال الثعلبيُّ: وهذا القولُ أشبهُ بظاهرِ الآية؛ لدخول الواو في الضياء، فيكون معنى الآية: ولقد آتينا موسى وهارون النَّصرَ والتوراةَ التي هي الضِّياءُ والذِّكر ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: غائبين؛ لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أنَّ لهم ربًّا قادراً يجازي على الأعمال، فهم يخشَوْنه في

---

(١) سنن الترمذي (٣١٦٥)، وهو عند أحمد (٢٦٤٠١)، وما سلف بين حاصرتين منهما. وهذا حديث ضعيف. ينظر التهذيب ٢/ ٥٤٢ ، وحاشية هذا الحديث في مسند أحمد.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٢ ، والمحتسب ٢/ ٦٤ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٢ - ٧٣ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٥ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٧ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٨٨ .

سرائرهم وخَلَواتهم التي يغيبون فيها عن الناس، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: من قيامها قَبْلَ التوبة ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وَجِلُون.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ﴾ يا معشرَ العرب ﴿مُنكِرُونَ﴾ وهو معجزٌ لا تقدرون على الإتيان بمثله. وأجاز الفرَّاء[1]: وهذا ذِكْرٌ مُباركاً أنزلناه، بمعنى أنزلناه مباركاً.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ قال الفرَّاء[2]: أي: أعطيناه هُداه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ النُّبوَّة، أي: وفَّقناه للنظر والاستدلال لمَّا جَنَّ عليه الليلُ فرأى النجم والشمس والقمر.

وقيل: «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبلِ موسى وهارون، والرُّشْدُ على هذا: النبوَّة. وعلى الأول أكثرُ أهل التفسير، كما قال ليحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. وقال القُرَظيُّ: رشده: صلاحه[3]. ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: أنه أهلٌ لإيتاء الرشد وصالحٌ للنبوة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ قيل: المعنى: أي: اذكر حين قال لأبيه، فيكون الكلام قد تمَّ عند قوله: «وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ». وقيل: المعنى: «وكنَّا به عالِمِينَ إذْ قال»،

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢٠٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٣ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٠٦ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٧ .

فيكون الكلام متَّصلاً ولا يوقف على قوله: «عالمِين». «لأبيه» وهو آزر ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ نمرود ومَن اتَّبعه.

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام. والتمثالُ: اسمٌ موضوعٌ للشيء المصنوع مشبَّهاً بخَلْقٍ من خَلْقِ الله تعالى. يقال: مثَّلت الشيءَ بالشيء، أي: شبَّهته به. واسمُ ذلك الممثَّل: تمثال[1].

﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: مقيمون على عبادتها. ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: نعبدها تقليداً لأسلافنا. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خُسْرانٍ بعبادتها؛ إذ هي جماداتٌ لا تنفع ولا تضرُّ ولا تعلم.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أجادٌّ أنت مُحِقٌّ[2] فيما تقول؟ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي: لاعبٌ مازح ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لست بلاعبٍ، بل ربُّكم والقائمُ بتدبيركم خالقُ السماوات والأرض ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: خَلَقهنَّ وأبدعهنّ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: على أنه ربُّ السماوات والأرض. والشاهدُ يبيِّن الحكم، ومنه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] أي: بَيَّن الله، فالمعنى: وأنا أبيِّن بالدليل ما أقول.

**قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أخبر أنه لم يكتفِ بالمُحاجَّة باللسان بل[3] كسَّر أصنامهم فِعْلَ واثقٍ بالله تعالى، مُوطِّنٍ نَفْسَه على مقاساة المكروه في

(١) الوسيط ٣/ ٢٤١.

(٢) في (ظ): أجاد محق، وفي (د): أجادلت بحق، وفي (م): أجاءٍ أنت بحق، ولم تجود في (ز)، والمثبت من (خ). وينظر الوسيط ٣/ ٢٤١، والوجيز (على هامش مراح لبيد) ٢/ ٣٩.

(٣) في (ظ): حتى.

الذبِّ عن الدِّين. والتاء في «تَاللهِ» تختصُّ في القسم باسم الله وحده، والواو تختصُّ بكلّ مُظْهَرٍ، والباءُ بكلِّ مُضْمَرٍ ومظهَر[١]، قال الشاعر:

تـاللـهِ يَـبْـقَـى عـلـى الأيـام ذو حِـيَـدٍ بـمُـشْـمَـخِـرٍّ بـه الـظَّـيَّـانُ والآسُ[٢]

قال ابن عباس: أي: وحرمةِ الله لأكيدنَّ أصنامكم، أي: لأَمْكُرنَّ بها. والكيدُ: المَكْر. كاده يَكيدُه كيداً ومَكِيدةً، وكذلك المُكايدة؛ وربما سمِّي الحربُ كيداً؛ يقال: غزا فلانٌ فلم يَلْقَ كيداً، وكلُّ شيءٍ تعالجه فأنت تَكِيدُه[٣].

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي: مُنْطَلِقين ذاهبين. وكان لهم في كلِّ سنةٍ عيدٌ يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم: لو خرجتَ معنا إلى عيدنا أعجبك دينُنا ـ رُوي ذلك عن ابن مسعود على ما يأتي بيانُه في «والصافاتِ»[٤] ـ فقال إبراهيم في نفسه: تاللهِ لَأَكيدَنَّ أصنامَكم.

قال مجاهد وقتادة: إنما قال ذلك إبراهيم في سرٍّ من قومه، ولم يسمعه إلَّا رجلٌ واحد، وهو الذي أفشاه عليه[٥]. والواحدُ يُخْبَر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أُخبر به عنه[٦] ممَّا يَرضَى به غيره، ومثله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

---

(١) أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص٢٤٧ .

(٢) نُسب البيت لمالك بن خالد الخُناعي، ولأبي ذؤيب الهذلي، ولأمية بن أبي عائذ، وللفضل بن عباس بن عتبة بن ربيعة، وهو في الصحاح (شمخر)، والحلل للبطليوسي ص٩٦ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٤٠ والخزانة ١٠/ ٩٥ ، وورد في الكتاب ٣/ ٤٩٦ ، والمقتضب ٢/ ٣٢٤ ، وشرح المفصل ٩/ ٩٨ ، والخزانة ٥/ ١٧ برواية: لله، بدل: تالله، وهما روايتان كما ذكر البطليوسي. وقوله: يبقى، هو جواب القسم بتقدير «لا» النافية. ويعني بقوله: ذو حيد: الوعل، ويروى بفتح الحاء وكسرها. والمشمخر: الجبل الشامخ. والظَّيَّان: ياسمين البَرّ. والآس: الريحان. ينظر الخزانة ٥/ ١٧٧، وشرح الشواهد للشنتمري ص٥١٣ .

(٣) الصحاح (كيد).

(٤) عند تفسير الآيات (٨٧ - ٨٩)، وينظر الوسيط ٣/ ٢٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٢٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٧ .

(٦) قوله: عنه، ليس في (م).

وقيل: إنما قاله بعد خروج القوم، ولم يبقَ إلَّا الضعفاءُ، فهم الذين سمعوه. وكان إبراهيم احتال في التخلُّف عنهم بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي: ضعيفٌ عن الحركة[١].

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: فُتاتاً. والجَذُّ: الكسر والقطع؛ جَذَذْتُ الشيءَ: كَسَرتُه وقَطَعتُه. والجِذاذ والجُذاذ: ما كُسِر منه، والضمُّ أفصح من كسره؛ قاله الجوهريُّ[٢]. الكسائي: ويقال لحجارة الذهب: جُذاذ؛ لأنها تُكْسَر.

وقرأ الكسائيُّ والأعمش وابن محيصن: «جِذَاذاً»؛ بكسر الجيم، أي: كِسَراً وقِطَعاً، جمع جَذيذٍ: وهو الهشيم، مثل خَفيف وخِفاف، وظَريف وظِراف[٣]. قال الشاعر:

جَـذَّذ الأصـنـامَ فـي مِـحْـرابِـهـا ذاك فـي الـلـه الـعـلـيِّ الـمـقـتَـدِرْ[٤]

الباقون بالضمِّ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، كالحُطام[٥] والرُّفات، الواحدةُ: جُذَاذة.

وهذا هو الكيد الذي أقسم بالله ليفعلنَّه بها. وقال: «فجعلهم»؛ لأن القوم اعتقدوا في أصنامهم الإلهية.

وقرأ ابن عباس وأبو نَهِيكٍ وأبو السمَّال: «جَذَاذاً» بفتح الجيم، والفتح والكسر لغتان، كالحَصاد والحِصاد. أبو حاتم: الفتحُ والكسرُ والضمُّ بمعنى؛ حكاه قُطْرُب[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩٥ مطولاً عن السدي.

(٢) في الصحاح (جذذ)، وما بعده منه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٨، وقراءة الكسائي في السبعة ص٤٢٩، والتيسير ص١٥٥. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٥١.

(٥) في النسخ: أي الحطام، والمثبت من المحتسب، وفيه قول أبي حاتم. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦.

(٦) المحتسب ٢/ ٦٤. وقال أبو حاتم ـ فيما ذكر ابن جني ـ: وأجودها الضم، وقد سلف ذلك عنه قريباً.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: عظيم الآلهة في الخلق؛ فإنه لم يكسره. قال السدِّيُّ ومجاهد: ترك الصنم الأكبر وعلَّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه[١]؛ ليَحتجَّ به عليهم. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم ودينه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إذا قامت الحجة عليهم. وقيل: «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ» أي: إلى الصنم الأكبر «يَرْجِعُونَ» في تكسيرها.

**قوله تعالى:** ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المعنى: لمَّا رجعوا من عيدهم ورأوا ما أَحْدَثَ بآلهتهم، قالوا على جهة البحث والإنكار: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وقيل: «مَن» ليس استفهاماً، بل هو ابتداءٌ، وخبرُه: «[إنه][٢] لمِن الظالمِين»، أي: فاعلُ هذا ظالم. والأوّل أصحُّ؛ لقوله: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾، وهذا هو جوابُ: «مَنْ فَعَلَ هذا»، والضمير في «قالوا» للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم، أو الواحدِ، على ما تقدَّم. ومعنى «يذكُرهم»: يَعيبُهم ويسبُّهم، فلعلَّه الذي صنع هذا.

واختلف الناس في وجه رَفْعِ إبراهيم؛ فقال الزجَّاج: يرتفع على معنى: يقال له: هو إبراهيم[٣]، ويكون مبتدأً وخبرُه محذوف[٤]، والجملةُ مَحْكِيَّة. قال: ويجوز أن

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، وينظر الدر المصون ٨/ ١٧٤.

(٣) يعني أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو، أو: هذا، والكلام إلى هذا الموضع في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦.

(٤) وذلك على تقدير: إبراهيم فاعلُ ذلك. الإملاء ٤/ ٦ (بهامش الفتوحات الإلهية).

وقد وقع في النسخ الخطية: فيكون مبتدأ... الخ. ولعل ثمة سقطاً أو وهماً وقع فيها. ولفظة: «ويكون» المثبتة أعلاه بدل: «فيكون» أولى بالسياق. فبها يتبيَّن القولان السالفان في وجه رفع «إبراهيم» كما جاء في المصادر.

يكون رفعاً على النداء، وضمُّه بناءٌ، وقام «له» مقامَ ما لم يسمَّ فاعله[١].

وقيل: رَفْعُه على أنه مفعولُ ما لم يسمَّ فاعلُه؛ على أن يُجعل «إبراهيم» غيرَ دالٍّ على الشَّخص، بل يجعل النُّطقُ به دالًّا على بناءِ هذه اللفظة. أي: يقال له هذا القولُ وهذا اللفظُ، وهذا كما تقول: زيدٌ وزنُ فَعْل، أو: زيدٌ ثلاثةُ أحرفٍ، فلَمْ تدلَّ بوجهٍ على الشَّخص، بل دلَلْتَ بنُطقك على نفس اللفظة. وعلى هذه الطريقة تقول: قلتُ إبراهيمَ، ويكون مفعولاً صحيحاً أنزلته منزلةَ قولٍ وكلام؛ فلا يتعذَّر بعد ذلك أن يُبنَى الفعل فيه للمفعول. هذا اختيار ابن عطية في رَفْعِه[٢].

وقال الأستاذ أبو الحجَّاج الإشْبِيليُّ الأعْلَم[٣]: هو رفعٌ على الإهمال؛ قال ابن عطية[٤]: لمَّا رَأَى وجوهَ الرفع كأنها لا تُوضح المعنى الذي قصدوه، ذهب إلى رَفْعِه بغيرِ شيءٍ، كما قد يَرفع التجرُّدُ والعِرْوُ عن العوامل الابتداءَ.

والفتى: الشابُّ، والفتاة: الشَّابَّة. قال ابن عباس: ما أرسل الله نبيًّا إلا شابًّا[٥]، ثم قرأ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ فيه مسألة واحدة،

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٣ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٨٠ ، والبيان ٢/ ١٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧ ، وما قبله وبعده منه. وذكر السمين في الدر المصون ٨/ ١٧٥ أن في هذه المسألة خلافاً بين النحويين؛ يعني: تسلُّط القول على المفرد الذي لا يؤدِّي معنى جملة، مثل: قلت خطبة، وشعراً، ولا هو مقتطع من جملة، كقول الشاعر: إذا ذقتُ فاها قلتُ طعم مدامة...، ولا هو مصدرٌ لقال، ولا هو صفة لمصدره، نحو: قلت حقًّا.

(٣) يوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي النحوي، والأعلم هو المشقوق الشَّفة، والشنتمري نسبة إلى شَنْتَمرية ـ مدينة بالأندلس ـ من مصنفاته: تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، وهو شرح أبيات الكتاب لسيبويه. ينظر السير ١٨/ ٥٥٥ ، وإنباه الرواة ٤/ ٥٩ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٨٧ ، وقد ردَّ الآلوسي في روح المعاني ١٧/ ٦٤ قول الأعلم.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٥ (١٣٦٧١)، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وهي: أنه لمَّا بلغ الخبرُ نمرودَ وأشرافَ قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنة، فقالوا: ائتوا به ظاهراً بمرأى من الناس حتى يروه، لعلَّهم يَشْهَدون عليه بما قال؛ ليكون ذلك حجَّةً عليه. وقيل: لعلَّهم يشهدون عقابَه، فلا يُقْدِمُ أحدٌ على مِثْلِ ما أَقْدَمَ عليه. أو: لعلَّ قوماً يَشْهَدون بأنهم رأَوْه يكسر الأصنام، أو: لعلَّهم يَشْهَدون طَعْنَه على آلهتهم؛ ليعلموا أنه يَستحقُّ العقاب.

قلت: وفي هذا دليلٌ على أنه كان لا يؤخذ[1] أحدٌ بدعوى أحدٍ فيما تقدَّم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ وهكذا الأمر في شرعنا ولا خلافَ فيه.

**قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾**

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ **فيه أربع مسائل:**

**الأولى:** لمَّا لم يكن السَّماعُ عامًّا ولا ثبتت الشهادة، استفهموه هل فَعَل أم لا؟ وفي الكلام حذف، أي: فجاء إبراهيم حين أُتِيَ به فقالوا: أأنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي: إنه غار وغضب من أن يُعبد هو ويُعبَد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك[2]، إن كانوا ينطقون فاسألوهم. فعلَّق فِعْلَ الكبير بنطق الآخَرين؛ تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم. كأنه قال: بل هو الفاعلُ إنْ نَطَق هؤلاء. وفي الكلام تقديمٌ على هذا التأويل في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

وقيل: أراد: بل فَعَلَه كبيرهم إن كانوا ينطقون. بيَّن أنَّ مَن لا يتكلَّم ولا يعلم لا يستحقُّ أن يُعبد. فكان قولُه من المعاريض، وفي المعاريض مندوحةٌ عن الكذب،

---

(١) في (د) و(م): يؤاخذ.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧.

أي: سَلُوهم إنْ نطقوا فإنَّهم يَصْدُقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل.

وفي ضمن هذا الكلام اعترافٌ بأنه هو الفاعل، وهذا هو الصحيح؛ لأنه عدَّده على نفسه، فدلَّ أنه خرج مَخْرَج التعريض. وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتَّخذونهم آلهةً من دون الله، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ الآية [مريم: ٤٢]، فقال إبراهيم: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرُّون، فيقول لهم: فلمَ تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجةُ منهم؛ ولهذا يجوز عند الأئمة[1] فرضُ الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحقِّ من ذات نفسه؛ فإنه أقربُ في الحجة وأَقْطَعُ للشُّبهة، كما قال لقومه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وهذه أختي، و﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] و﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[2].

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «بل فَعَلَّهُ» بتشديد اللام[3]، بمعنى: فلعلَّ الفاعل كبيرهم.

وقال الكسائيُّ: الوقفُ عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ أي: فَعَلَه مَن فَعَلَه، ثم يبتدئ: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[4]

وقيل: أي: لِمَ تُنكرون أن يكون فَعَلَه كبيرهم؟ فهذا إلزامٌ بلفظ الخبر، أي: مَن اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلاً، والمعنى: بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم.

**الثانية**: روى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ في شيءٍ قطُّ إلَّا في ثلاثٍ؛ قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [ولم يكن سقيماً]، وقولُه لسارة: أختي، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾» لفظُ الترمذيّ. وقال: حديثٌ حسن صحيح[5].

---

(١) في النسخ: الأمة، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣ ، والكلام منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣ ، وقول إبراهيم: هذه أختي، سيأتي قريباً.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٩ ، والبحر ٦/ ٣٢٥ ، والدر المصون ٨/ ١٧٨ .

(٥) صحيح البخاري (٣٣٥٧) و(٣٣٥٨) و(٥٠٨٤) مرفوعاً وموقوفاً، وصحيح مسلم (٢٣٧١)، وسنن الترمذي (٣١٦٦)، وما سلف بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٩٢٤١).

ووقع في الإسراء في «صحيح» مسلم[١] من حديث أبي هريرةَ ﷺ في قصة إبراهيم قال: وذكر قوله في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾. فعلى هذا تكون الكذبات أربعاً، إلَّا أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام قد نفى تلك بقوله: «لم يكذبْ إبراهيم النبيُّ قطُّ إلَّا ثلاثَ كذبات؛ ثِنْتين في ذات الله: قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وواحدة في شأن سارة». الحديثَ، لفظُ مسلم. وإنما لم يُعَدَّ عليه قولَه في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كذبةً ـ وهي داخلة في الكذب ـ لأنه ـ والله أعلم ـ كان حين قال ذلك في حالِ الطُّفولية، وليست حالَ تكليف[٢]. أو قاله لقومه مستفهماً لهم على جهة التوبيخِ والإنكار، وحُذفت همزةُ الاستفهام. أو على طريق الاحتجاج على قومه، تنبيهاً على أنَّ ما يتغيَّر لا يصلح للربوبية[٣]. وقد تقدَّمت هذه الوجوهُ كلُّها في «الأنعام» مبيَّنةً والحمد لله[٤].

**الثالثة**: قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٥]: في هذا الحديث نكتةٌ عُظمى تَقْصِمُ الظَّهر، وهي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لم يكذب إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذَبات» ثِنتين مَاحَلَ بهما عن دين الله، وهما قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾»، ولم يعدَّ [قوله:] هذه أختي، في ذات الله تعالى وإن كان دَفَع بها مكروهاً، و لكنه لمَّا كان لإبراهيمَ عليه السلام فيها حظٌّ من صيانة فراشه وحماية أهله، لم يجعلها في ذات الله، وذلك لأنه لا يُجعل في جنب الله وذاتِه إلَّا العملُ الخالص من شوائب الدنيا، والمعاريضُ التي تَرْجِع إلى النفس إذا خَلَصَتْ للدِّين

---

(١) برقم (١٩٤): (٣٢٨)، وهو حديث الشفاعة، وليس في الإسراء.

(٢) في (م): في حال الطفولة وليست حالة تكليف، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٦/ ١٨٤ والكلام منه.

(٣) المفهم ١/ ٤٣٢.

(٤) ٨/ ٤٣٨ وما بعدها.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

كانت لله سبحانه، كما قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. وهذا لو صَدَر منَّا لكان لله، ولكنَّ منزلة إبراهيمَ اقتضت هذا. والله أعلم.

**الرابعة**: قال علماؤنا: الكذبُ هو الإخبارُ عن الشيء بخلافِ ما هو عليه. والأَظْهَرُ أنَّ قولَ إبراهيم فيما أَخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض، وإن كانت معاريضَ وحسناتٍ وحججاً في الخَلْق ودلالاتٍ، لكنَّها أثَّرت في الرتبة، وخفضت عن محمدٍ المنزلةَ، واستحيا منها قائلها ـ على ما ورد في حديث الشفاعة[١] ـ فإن الأنبياء يشفقون ممَّا لا يُشفق منه غيرهم؛ إجلالاً لله؛ فإنَّ الذي كان يليق بمرتبته في النبوَّة والخُلَّة أن يصدع بالحقِّ، ويصرِّحَ بالأمر كيفما كان[٢]، ولكنه رخِّص له فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة: «إنَّما اتُّخذت خليلاً من وراءَ وراءَ»[٣] بنَصْبِ «وراءَ» فيهما على البناء كخمسةَ عَشَرَ، وكما قالوا: [هو] جاري بَيْتَ بَيْتَ [أي: بيتُه إلى بيتي][٤].

ووقع في بعض نسخ مسلم «من وراء من وراء» بإعادة «من»، وحينئذٍ لا يجوز البناء على الفتح، وإنما يُبنَى كلُّ واحدٍ منهما على الضمّ؛ لأنه قُطِع عن الإضافة ونُويَ المضافُ، كقَبْلُ وبَعْدُ. وإن لم يُنْوَ المضافُ أُعرب ونوِّن، غيرَ أنَّ وراء لا ينصرف؛ لأنَّ أَلِفَه للتأنيث؛ لأنهم قالوا في تصغيرها: وُرَيْئَة ـ قال الجوهريّ[٥]: وهي شاذة ـ

---

(١) أخرجه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣): (٣٢٢) من حديث أنس ﷺ. ولفظه عند مسلم: ... فيأتون إبراهيم ﷺ، فيقول: لست هُنَاكُم (يعني لست أهلاً لذلك) ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربَّه منها...

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣ (والكلام منه): ويصرح بالأمر فيكون ما كان.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥) مطولاً من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، وسلف ٢/ ٢٥٣ .

(٤) المفهم ١/ ٤٣٠ ، وما بين حاصرتين منه. قال أبو العباس: ومنه قولهم: هي همزة بينَ بينَ، وأتيتك صباحَ مساءَ. وقال النووي في شرح صحيح مسلم ٣/ ٧١ : المشهور الفتح فيهما بلا تنوين، ويجوز عند أهل العربية بناؤهما على الضم.

(٥) في الصحاح (ورى).

فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود «مِن» فيهما[١].

والمعنى: أنِّي كنتُ خليلاً متأخِّراً عن غيري. ويستفاد من هذا أنَّ الخُلَّة لم تصحَّ بكمالها إلَّا لمن صحَّ له في ذلك اليوم المقامُ المحمود[٢] كما تقدم[٣]. وهو نبيُّنا محمدٌ ﷺ.

**قوله تعالى:** ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: رجع بعضهم إلى بعضٍ رجوعَ المنقطِع عن حُجَّته، المتفطِّنِ لصحَّةِ حُجَّةِ خصمه. ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بعبادةِ مَن لا ينطقُ بلفظة، ولا يملك لنفسه لحظةً، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس مَن لا يَردُّ عن رأسه الفأس؟!

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: عادوا إلى جهلهم وعِنادهم[٤]، فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فـ ﴿قَالَ﴾ قاطعاً لمَا به يَهْذون[٥]، ومُفْحِماً لهم فيما يتقوَّلون: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ. أُفّٖ لَّكُمۡ﴾ أي: التَّتْنُ لكم ﴿وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؟!

وقيل: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: طأطؤوا رؤوسهم خجلاً من إبراهيم[٦]. وفيه

---

(١) ينظر الصحاح (ورى)، والمفهم ١/ ٤٣٠ - ٤٣١.

(٢) المفهم ١/ ٤٢٩ - ٤٣٠.

(٣) ١٣/ ١٤٧ وما بعدها.

(٤) في (د) و(ز) و(م): وعبادتهم.

(٥) في (د) و(ظ): يهددون.

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٨٦.

نظر؛ لأنه لم يقل: نَكَسوا رؤوسهم، بفتح الكاف، بل قال: ﴿نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رُدُّوا على ما كانوا عليه في أوَّل الأمر، وكذا قال ابن عباس؛ قال: أدركهم الشقاء، فعادوا إلى كفرهم[١].

**قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ لمَّا انقطعوا بالحجَّة أخذتهم عزَّةٌ بإثم[٢]، وانصرفوا إلى طريق الغَشْم والغَلَبة، وقالوا: حرِّقوه. ورُوي أنَّ قائل هذه المقالةِ هو رجلٌ من الأكراد من أعراب فارس، أي: من باديتها؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج[٣]. ويقال: اسمه هيزر، فخسف الله به الأرض، فهو يَتجلجلُ فيها إلى يوم القيامة[٤]. وقيل: بل قاله ملكهم نمرود.

﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ بتحريق إبراهيم؛ لأنه يسبُّها ويَعِيبُها. وجاء في الخبر: أنَّ نمرود بنى صرحاً طولُه ثمانون ذراعاً، وعرضُه أربعون ذراعاً. قال ابن إسحاق[٥]: وجمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها، واشتعلت واشتدت حتى أنْ كان الطائر لَيمرُّ بجنباتها فيحترق من شدَّة وهجها. ثم قيَّدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولاً ـ ويقال: إنَّ إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذٍ ـ فضجَّت السماوات والأرض ومَن فيهنَّ من الملائكة وجميعِ الخلق إلَّا الثقلين ضجةً واحدة [وقالوا: أي] ربَّنا! إبراهيم ليس في أرضك أحدٌ يعبدك غيرُه يُحرَق فيك، فأْذَنْ لنا في نُصرته. فقال الله تعالى: إن

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٤٣ .

(٢) في (ظ): بالإثم، والمثبت من باقي النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٨ والكلام منه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٥٣ ، وأخرجه عن ابن عمر ومجاهد الطبري ١٦/ ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٥ عن شعيب الجَبَائي، ووقع فيه اسم الرجل: هيزن، وكذا ذكره البغوي ٣/ ٢٥٠ .

(٥) ذكره عن ابن إسحاق الثعلبي في عرائس المجالس ص٧٨ - ٧٩ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يَدْعُ غيري، فأنا أعلم به وأنا وليُّه. فلمَّا أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خُزَّان الماء ـ وهو في الهواء ـ فقالوا[١]: يا إبراهيم إن أردتَ أخمدنا النار بالماء فقال: لا حاجةَ لي إليكم. وأتاه مَلَك الريح فقال: لو شئتَ طيَّرتُ النار. فقال: لا. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهمَّ أنت الواحدُ في السماء، وأنا الواحدُ في الأرض[٢]، ليس أحدٌ يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل.

وروى أبيّ بن كعب ﷺ عن النبيِّ ﷺ[٣]: «إنَّ إبراهيم حين قيَّدوه ليُلقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمدُ ولك الملكُ لا شريكَ لك» قال: ثم رمَوْا به في المنجنيق من مَضْربٍ شاسع، فاستقبله جبريلُ فقال: يا إبراهيم ألك حاجةٌ؟ قال: أمَّا إليك فلا. فقال جبريل: فاسأل ربك. فقال: حَسْبي مِن سؤالي عِلْمُه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[٤].

قال بعض العلماء: جعل الله فيها برداً يدفع[٥] حرَّها، وحرًّا يدفع بردَها، فصارت سلاماً عليه. قال أبو العالية: ولو لم يقل: «بَرْداً وَسَلَاماً» لكان بردها أشدَّ عليه من حرِّها، ولو لم يقل: «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد[٦].

---

(١) في العرائس: أتاه ملك المياه فقال.

(٢) في العرائس: اللهم أنت الواحد في السماء وفي الأرض. وأخرج البزار (٢٣٤٩ - كشف الأستار) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك». وحسنه الحافظ ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٢٦٥ . وقال الذهبي في الميزان ٤/ ٦٩ : غريب جدًّا.

(٣) كذا ذكر المصنف، وذكره البغوي في التفسير ٣/ ٢٥٠ عن أبي بن كعب قوله، ووقع في العرائس ص٧٩ : معتمر عن أبي بن كعب عن أرقم، ولعل لفظة «أُبيّ» مقحمة، فقد أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٩ من طريق معتمر عن ابن كعب عن أرقم، ولعل ابن كعب هو محمد .

(٤) عرائس المجالس ص٧٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٠ . وقوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٥٠ بلفظ: علمه بحالي يغني عن سؤالي. وقال: قال ابن تيمية: موضوع.

(٥) في (م): يرفع، في الموضعين، والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٣/ ٤٥٤ ، والكلام منه.

(٦) في (ظ٥): إلى الأبد، وفي (خ): على الأرض، والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٣/ ٤٥٤ =

وذكر بعض العلماء: أنَّ الله تعالى أنزل زَرْبِيَّة[١] من الجنة فبسطها في الجحيم، وأنزل الله ملائكة[٢]: جبريلَ وميكائيل ومَلَكَ البرد وملك السلامة.

وقال عليٌّ وابن عباس: لو لم تُتْبع بردَها سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذٍ نار إلا طَفئتْ، ظنَّتْ أنها تُعنَى[٣].

قال السُّدِّي: وأمر الله كلَّ عودٍ من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته.

وقال كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيمَ إلَّا وِثاقه[٤]. فأقام في النار سبعةَ أيامٍ لم يقدر أحدٌ أن يقرب من النار، ثم جاؤوا فإذا هو قائمٌ يصلِّي.

وقال المنهال بن عمرو: قال إبراهيم: ما كنتُ أياماً قطُّ أَنْعَمَ منِّي من[٥] الأيام التي كنتُ فيها في النار.

وقال كعبٌ وقتادةُ والزهريُّ: ولم تبقَ يومئذٍ دابَّةٌ إلا أطفأت عنه النار إلَّا الوَزَغُ؛ فإنها كانت تنفخ عليه؛ فلذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلها وسمَّاها فُوَيْسقة[٦].

وقال شعيب الجَبَائي[٧]: أُلقي إبراهيم في النار وهو ابنُ ستَّ عَشْرةَ سنةً. وقال

---

= والكلام منه، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/٣٠٩.

(١) مفرد زرابيّ، وهي البُسُط، وقيل: كل ما بُسط واتُّكئ عليه. اللسان (زرب).

(٢) في (ظ): ملائكته.

(٣) عرائس المجالس ص٧٩، وأخرج قولهما الطبري ١٦/٣٠٦ - ٣٠٧، وخبر علي أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/٥١٩ - ٥٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/٣٠٧ و ٣٠٩ من طريق قتادة عن كعب.

(٥) في النسخ: في، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/٣٠٧، وقد أخرج الخبر فيه.

(٦) عرائس المجالس ص٧٩، وأخرجه عبد الرزاق ٢/٢٥، والطبري ١٦/٣٠٩ - ٣١٠ عن قتادة والزهري. وأخرج البخاري (٣٣٥٩) عن أم شَريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام». وأخرجه أحمد (٢٧٣٦٥)، ومسلم (٢٢٣٧) مختصراً بذكر قتل الوَزَغ.

(٧) في (ز): الجمالي، وفي باقي النسخ: الحماني، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/٣٠٨ وقد أخرج قوله. قال الذهبي في الميزان ٢/٢٧٨: أخباري متروك؛ قاله الأزدي.

ابن جُرَيْج: أُلقيَ إبراهيم في النار وهو ابن ستَّ وعشرين سنة. ذكر الأوّل الثَّعْلَبيُّ[١]، والثاني الماوَرْديّ[٢]، فالله أعلم.

وقال الكلبيُّ: بردت نيرانُ الأرض جميعاً فما أنضجت كُراعاً[٣]، فرآه نمرود من الصرح وهو جالسٌ على السرير يؤنسه مَلَكُ الظِّلّ. فقال: نِعْمَ الربُّ ربُّكَ! لأقرِّبنَّ له أربعةَ آلافِ بقرةٍ. وكَفَّ عنه[٤].

**قوله تعالى:** ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي: أراد نمرودُ وأصحابُه أن يمكروا به ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ في أعمالهم، وردَدْنا مكرهم عليهم بتسليطِ أضعفِ خَلْقِنا؛ قال ابن عباس: سلَّط الله عليهم أضعفَ خَلْقِه: البعوضَ، فما برح نمرودُ حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدةٌ في منخره، فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغَه، وكان أكرمَ الناس عليه الذي يضربُ رأسه بِمِرْزَبَّةٍ من حديد. فأقام بهذا نحواً من أربع مئة سنة[٥].

---

(١) في عرائس المجالس ص٨٠ ، ووقع في مطبوعه: الشعبي بدل: شعيب الجبائي.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٥٣ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره الثعلبي ص٧٩ - ٨٠ مطولاً عن ابن إسحاق. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٨ - ٨٩ : وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم، وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه، ما رأيت اختصاره لقلة صحته، والصحيح من ذلك أنه ألقي في النار، فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً، فخرج منها سالماً، وكانت أعظم آية.

(٥) ذكره بنحوه عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٤٤ ، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق في التفسير ١/ ١٠٥ - ١٠٦ ، والطبري ٤/ ٥٧٢ - ٥٧٣ عن زيد بن أسلم. وذكر الآلوسي في روح المعاني =

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: نجَّينا إبراهيم ولوطاً إلى أرض الشام، وكانا بالعراق ـ وكان إبراهيم[١] عليه السلام عمَّه ـ قاله ابن عباس[٢]. وقيل لها: مباركةٌ؛ لكثرة خِصْبها وثمارها وأنهارها؛ ولأنها معادن الأنبياء. والبركةُ: ثبوت الخير، ومنه: بَرَكَ البعير: إذا لزم مكانه فلم يبرح. وقال ابن عباس: الأرض المباركة مكة[٣].

وقيل: بيت المقدس[٤]؛ لأنَّ منها بعثَ الله أكثرَ الأنبياء، وهي أيضاً كثيرة الخِصب والثمر[٥]، عذبةُ الماء، ومنها يتفرَّق في الأرض؛ قال أبو العالية: ليس ماءٌ عذبٌ إلَّا يهبطُ من السماء إلى الصخرة التي ببيت المقدس، ثم يتفرَّق في الأرض[٦]. ونحوه عن كعب الأحبار[٧]. وقيل: الأرض المباركة مصر.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: زيادة؛ لأنه دعا في إسحاق، وزِيْدَ يعقوب[٨] من غير دعاء، فكان ذلك نافلةً، أي: زيادة على ما سأل؛ إذ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]. ويقال لولد الولد: نافلة؛ لأنه زيادةٌ على الولد.

---

= ١٧/ ٧٠ أن المعوَّل عليه في تفسير الآية: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي: أخْسَرَ مِنْ كلِّ خاسر، حيث عاد سعيُهم في إطفاء نور الحقِّ قولاً وفعلاً برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحقّ، وهم على الباطل، وموجِباً لارتفاع درجته عليه السلام، واستحقاقهم لأشدِّ العذاب.

(١) في النسخ: لوط، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١١ عن أبي بن كعب والحسن وقتادة وغيرهم، ولم نقف عليه عن ابن عباس. وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٦٨، وهذا قول الأكثر .اهـ. واختاره الطبري ١٦/ ٣١٥ وقال: لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١٤.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٤.

(٥) في (د) و(ز) و(م): النمو.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١٤. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٩: وهذا ضعيف.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٤.

(٨) المثبت من (خ) و(ظ)، وفي باقي النسخ: وزيد في يعقوب.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: وكلًّا من إبراهيم وإسحاق ويعقوبَ جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله. وجَعْلُهم صالحين إنما يتحقَّق بخَلْقِ الصلاح والطاعة لهم، وبخَلْقِ القدرة على الطاعة، ثم ما يكتسبُه العبدُ فهو مخلوقٌ لله تعالى[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: رؤساء يُقتدَى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات. ومعنى «بِأَمْرِنَا» أي: بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، فكأنه قال: يهدون بكتابنا. وقيل: المعنى: يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إيَّاهم بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: أن يفعلوا الطاعات. ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: مطيعين.

**قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ «لوطاً» منصوبٌ بفعلٍ مضمَرٍ دلَّ عليه الثاني، أي: وآتينا لوطاً آتيناه. وقيل: واذكر لوطاً. والحُكْم: النبوَّة، والعلم: المعرفةُ بأمر الدِّين وما يقع به الحُكْم بين الخصوم. وقيل: «عِلْماً»: فهماً، والمعنى واحد.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يريد سَدُوم. ابنُ عباس: كانت سبعَ قُرًى، قَلَبَ جبريلُ عليه السلام ستةً وأبقى واحدةً للوطٍ وعيالِه، وهي زُغَر[2] التي فيها الثمر من كُورة فلسطين إلى حدِّ الشراة[3]، ولها قرى كثيرةٌ إلى حدِّ بحر الحجاز.

---

(١) في (ظ): فإن ما يكتسبه العبد مخلوق لله تعالى.

(٢) على وزن زُفَر، ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/ ١٤٢ و ٤١١ ، وقال في الموضع الثاني: وهي البحيرة المقلوبة وبقية مدائن لوط، وإنها نجت لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة. وذكر الخبر أبو الليث ٢/ ١٣٧ - ١٣٨ بنحوه دون نسبة.

(٣) في النسخ الخطية: السراة، والمثبت من (م). قال ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٣٣٢ : الشراة: صُقْع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ. وذكر البكري في معجم ما استعجم ٢/ ٦٩٩ بيت حاتم الطائي: =

وفي الخبائث التي كانوا يعملونها قولان: أحدهما: اللِّواط، على ما تقدَّم. والثاني: الضُّراط[١]، أي: كانوا يَتَضارَطُون في ناديهم ومجالسهم. وقيل: الضُّراط وحَذْفُ الحصى، وسيأتي[٢].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، والفُسوقُ: الخروجُ، وقد تقدَّم[٣].

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ في النبوّة. وقيل: في الإسلام. وقيل: الجنة. وقيل: عنَى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

**قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: واذكر نوحاً إذ نادى، أي: دعا. «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبلِ إبراهيمَ ولوطٍ، على قومه وهو قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وقال لمَّا كذبوه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من الغرق. والكَرْبُ: الغمُّ الشديد. «وأَهْلَهُ» أي: المؤمنين منهم. ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال أبو عبيدة: «مِن» بمعنى على[٤]. وقيل: المعنى: فانتقمنا له من القوم الذينَ كذَّبوا بآياتنا. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: الصغير منهم والكبير.

---

= سقى الله ربُّ الناس سحًّا وديمة جنوبَ الشَّراة من مآبَ إلى زُغَر

وقال: الشراة أرض في ناحية الشام، ومآب موضع هناك.

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٥٥.

(٢) عند تفسير الآية (٢٩) من سورة العنكبوت.

(٣) ١/ ٣٦٨.

(٤) ذكره عن أبي عبيدة البغوي ٣/ ٢٥٢، والرازي ٢٢/ ١٩٤، والطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٤٧، ولم نقف عليه في مجاز القرآن له.

**قوله تعالى:** ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

**فيه ست وعشرون مسألة:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ أي: واذكرهما إذ يحكمان، ولم يُرِدْ بقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ الاجتماعَ في الحُكْم؛ وإنْ جَمَعَهما في القول؛ فإنَّ حَكَمين على حُكْم واحدٍ لا يجوز. وإنَّما حَكَمَ كلُّ واحدٍ منهما على انفراده، وكان سليمانُ الفاهِمَ لها بتفهيم الله تعالى إياه[١].

﴿فِى ٱلْحَرْثِ﴾ اختُلف فيه على قولين: فقيل: كان زرعاً؛ قاله قتادة. وقيل: كَرْماً نبتت[٢] عناقيده؛ قاله ابن مسعود وشُريح[٣]. والحرثُ يقال فيهما، وهو في الزرع أبعدُ من الاستعارة[٤].

**الثانية:** قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: رَعَتْ فيه ليلاً، والنَّفْشُ: الرَّعْيُ بالليل. يقال: نَفَشَتْ بالليل وهَمَلت بالنهار: إذا رعت بلا راعٍ. وأَنْفَشَها صاحبُها. وإبلٌ نُفَّاش[٥]. وفي حديث عبد الله بن عمرو. الحبةُ في الجنة مِثْلُ كَرِش البعير يبيت نافِشاً، أي: راعياً[٦]. حكاه الهَرويّ. وقال ابن سِيْدَه: لا يقال الهَمَل في الغنم، وإنما هو في الإبل[٧].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٤ .

(٢) في (ظ): تدلت.

(٣) أخرج قولهما وقول قتادة الطبري ١٦/ ٣٢٠-٣٢١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٩١ .

(٥) الصحاح (نفش) ، وقال الجوهري: ولا يكون النفش إلا بالليل، والهمل يكون ليلاً ونهاراً.

(٦) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث ٢/ ١٢٠ ، والزمخشري في الفائق ٤/ ١٤ ، وابن الأثير في النهاية (نفش).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ .

**الثالثة**: قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ أقلَّ الجمع اثنان. وقيل: المرادُ الحاكمان والمحكومُ عليه؛ فلذلك قال: «لِحكمِهِم».

**الرابعة**: قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فهَّمناه القضيةَ والحكومة، فكَنَى عنها؛ إذ سبق ما يدلُّ عليها. وفَضَلَ حُكْمُ سليمانَ حُكْمَ أبيه في أنه أحرز أن يبقى مِلْكُ[1] كلِّ واحدٍ منهما على متاعه، وتبقى نفسه طيبةً بذلك. وذلك أنَّ داودَ عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث. وقالت فرقة: بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث، والحرثَ إلى صاحب الغنم.

قال ابن عطية[2]: فيُشْبِهُ على القول الواحد أنه رأى الغنم تُقاوِمُ الغلَّةَ التي أفسدت. وعلى القول الثاني رآها تقاومُ الحرث والغلَّة. فلمَّا خرج الخصمان على سليمانَ، وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخرَ، فقال: بمَ قضى بينكما نبيُّ الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث. فقال: لعلَّ الحكم غيرُ هذا، انصرفا معي. فأتى أباه فقال: يا نبيَّ الله، إنك حكمتَ بكذا وكذا، وإنِّي رأيتُ ما هو أَرْفَقُ بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث[3]، فينتفع بألبانها وسُمُونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرعُ إلى حاله التي أصابته الغنم عليها[4] في السنة المقبلة، ردَّ كلُّ واحدٍ منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفِّقت يا بنيَّ، لا يقطع الله فهمك. وقضى بما قضى به سليمان؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما[5].

---

(١) قوله: ملك، من (ز) و(خ) والمحرر الوجيز ٤/ ٩١، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٩١، وما قبله منه.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): الزرع.

(٤) قوله: عليها، من (خ).

(٥) أخرجه عن ابن مسعود ومجاهد وغيرهما الطبري ١٦/ ٣٢٢-٣٢٨.

وقال الكلبيُّ: قوَّم داود الغنم والكرم الذي أفسدته الغنم، فكانت القيمتان سواءً، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال النحاس؛ قال: إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث؛ لأن ثمنها كان قريباً منه. وأمَّا في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمةُ ما نال من الغنم وقيمةُ ما أفسدت الغنم سواءً أيضاً.

**الخامسة**: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأوَّل قومٌ أنَّ داودَ عليه السلام لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أُوتي الحُكْمَ والعلم، وحملوا قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ على أنه فضيلةٌ له على داودَ، وفضيلتُه راجعةٌ إلى داود، والوالدُ تَسُرُّه زيادةُ ولده عليه.

وقالت فرقة: بل لأنه لم يُصِب العينَ المطلوبة في هذه النازلة، وإنَّ ما مَدَحه الله بأنَّ له حكماً وعلماً يرجع إليه في غير هذه النازلة. وأمَّا في هذه فأصاب سليمانُ وأخطأ داودُ عليهما الصلاة والسلام، ولا يمتنع وجودُ الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم، لكن لا يُقَرُّون عليه، وإن أُقِرَّ عليه غيرهم[1].

ولمَّا هدم الوليد كنيسة دمشق، كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تَرْكَها، فإنْ كنتَ مصيباً فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيباً فقد أخطأتَ أنت! فأجابه الوليد: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[2].

وقال قوم: كان داودُ وسليمانُ ـ عليهما السلام ـ نبيَّينِ يقضيان بما يوحَى إليهما، فحَكَمَ داود بوحيٍ، وحَكَم سليمان بوحيٍ نَسخ الله به حُكْم داود، وعلى هذا «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ»، أي: بطَريق الوحي الناسخ لمَا أُوحي إلى داود، وأُمر سليمان أن يبلِّغ ذلك داود؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. هذا قولُ جماعةٍ من

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٥٧ .

(٢) العقد الفريد ٢/ ٢٠٢ ، وأخرجه ابن عساكر ٢/ ٢٥٩ و ٦٣/ ١٧٧ .

العلماء، ومنها ابن فورك[١].

وقال الجمهور: إنَّ حُكْمهما كان باجتهادٍ وهي:

**السادسة**: واختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء؛ فمنَعَه قوم، وجوَّزه المحقِّقون[٢]؛ لأنه ليس فيه استحالةٌ عقلية؛ لأنه دليلٌ شرعيٌّ، فلا إحالةَ أن يستدلَّ به الأنبياء، كما لو قال له الله سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنِّك كذا؛ فاقطَعْ بأنَّ ما غلب على ظنِّك هو حُكْمي؛ فبلِّغه الأمة، فهذا غيرُ مستحيلٍ في العقل.

فإن قيل: إنَّما يكون دليلاً إذا عُدم النصُّ[٣]، وهم لا يعدمونه.

قلنا: إذا لم ينزل المَلَكُ فقد عُدِمَ النصُّ عندهم، وصاروا في البحث كغيرهم من المجتهدين عن معاني النصوص التي عندهم. والفرقُ بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الغلط والخطأ. وعن التقصير في اجتهادهم، وغيرُهم ليس كذلك[٤]. هذا مذهبُ[٥] الجمهور في أنَّ جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم.

وذهب أبو علي ابن أبي هريرة[٦] من أصحاب الشافعيِّ إلى أنَّ نبيَّنا ﷺ مخصوصٌ منهم في عدم جواز الخطأ عليه[٧]، وفرَّق بينه وبين غيره من الأنبياء: أنه لم يكن بعده

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩١ .

(٢) المفهم ٥/ ١٧٦ .

(٣) وقع في المفهم ٥/ ١٦٧ (والكلام منه): إن الاجتهاد إنما يسوغ عند فَقْد النص، بدل قوله: إنما يكون دليلاً إذا عدم النص.

(٤) المفهم ٥/ ١٧٦ .

(٥) في (م): كما ذهب، وفي (خ): هذا جواب.

(٦) الحسن بن الحسين البغدادي القاضي، شيخ الشافعية، انتهت إليه رئاسة المذهب، توفي سنة (٣٤٥ هـ). السير ١٥/ ٤٣٠ .

(٧) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: في جواز الخطأ عليهم، وفي النكت والعيون ٣/ ٤٥٧ (والكلام منه): بجواز الخطأ عليهم دونه.

مَن يستدرك غلطَه، ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد بُعِث بعدَ غيره من الأنبياء مَن يستدرك غلطَه.

وقد قيل: إنه على العموم في جميع الأنبياء، وإنَّ نبيَّنا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في تجويز الخطأ على سواء، إلَّا أنهم لا يُقَرُّون على إمضائه، فلم يعتبر فيه استدراك مَن بعدَهم من الأنبياء.

هذا رسول الله ﷺ وقد سألته امرأةٌ عن العِدَّة، فقال لها: «اعتدِّي حيث شئتِ» ثم قال: «امكُثي في بيتك حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه»[١]. وقال له رجلٌ: أرأيتَ إن قُتِلتُ صابراً محتسباً، أيحجُزني عن الجنة شيء؟ فقال: «لا». ثم دعاه فقال: «إلَّا الدَّين، كذا أخبرني جبريل»[٢].

**السابعة**: قال الحسن: لولا هذه الآيةُ لرأيت القضاةَ هَلَكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعَذَر داود باجتهاده[٣]. وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا اختلفوا، فقالت فرقة: الحقُّ في طرفٍ واحدٍ عند الله، وقد نَصَبَ على ذلك أدلةً، وحَمَلَ المجتهدين على البحث عنها، والنظرِ فيها، فَمَن صادفَ العين المطلوبة في المسألة فهو المصيبُ على الإطلاق، وله أجران؛ أجرٌ في الاجتهاد، وأجرٌ في الإصابة، ومَن لم يصادفها فهو مصيبٌ في اجتهاده؛ مخطئٌ في أنْ لم يُصب العينَ، فله أجرٌ وهو غيرُ معذور. وهذا سليمانُ قد صادف العين المطلوبة، وهي التي فهم. ورأت فرقة[٤] أنَّ العالم المخطئَ لا إثمَ عليه في خطئه، وإن كان غيرَ معذور.

---

(١) النكت والعيون٣/ ٤٥٧-٤٥٨ ، والحديث أخرجه مطولاً أحمد (٢٧٠٨٧)، وأبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤) من حديث فُرَيْعة بنت مالك رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٥٤٢) ، ومسلم (١٨٨٥) من حديث أبي قتادة ﷺ. وأخرجه أحمد (٨٠٧٥) والنسائي في المجتبى ٦/ ٣٣-٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ. والكلام من النكت والعيون ٣/ ٤٥٨ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٨ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٩١ (والكلام منه): ورأت هذه الفرقة.

وقالت فرقة: الحقُّ في طرفٍ واحدٍ، ولم يَنصِب الله تعالى عليه دليلاً، بل وَكَل الأمر إلى نظر المجتهدين، فَمَن أصابه أصاب، ومَن أخطأ فهو معذورٌ مأجور، ولم[1] نُتعبَّد بإصابة العين، بل تُعُبِّدْنا بالاجتهاد فقط.

وقال جمهور أهل السُّنة ـ وهو المحفوظُ عن مالك وأصحابه ﷺ ـ: إنَّ الحقَّ في مسائل الفروع في الطَّرفين، وكلُّ مجتهدٍ مُصيبٌ، والمطلوبُ إنما هو الأفضلُ في ظنِّه، فكلُّ مجتهدٍ قد أدَّاه نظرهُ إلى الأفضل في ظنِّه؛ والدليلُ على هذه المقالة أنَّ الصحابة فَمَن بَعْدَهم قرَّر بعضهم خلافَ بعض، ولم يَرَ أحدٌ منهم أن يقع الانحمالُ على قوله دون قولِ مُخالفه. ومنه ردُّ مالك رحمه الله للمنصور أبي جعفر عن حَمْل الناس على «الموطأ»، فإذا قال عالمٌ في أمرٍ [ما]: حلالٌ، فذلك هو الحقُّ فيما يختصُّ بذلك العالم عند الله تعالى، وبكلِّ مَن أخذ بقوله، وكذا في العكس. قالوا: وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية المُثْلَى والتي هي أرجح، فالأُولى ليست بخطأ، وعلى هذا يحمِلون قولَه عليه الصلاة والسلام: «إذا اجتهد العالم فأخطأ» أي: فأخطأ الأفضلَ[2].

**الثامنة**: روى مسلم وغيره[3] عن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «إذا حَكَم الحاكمُ فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ، فله أجر». هكذا لفظُ الحديث في كتاب مسلم: «إذا حَكَم فاجتهد»[4]، فبدأ بالحُكْم قبل الاجتهاد، والأمرُ بالعكس، فإنَّ الاجتهاد مقدَّمٌ على الحكم، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع. وإنَّما معنى هذا الحديث: إذا أراد أن يحكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾. فعند ذلك يجتهد في النازلة. ويفيد هذا صحةَ ما

---

(١) في (ظ): فإنا لم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٩١-٩٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وسيأتي تخريج الحديث في المسألة التالية.

(٣) صحيح مسلم (١٧١٦)، وهو عند أحمد (١٧٧٧٤) و(١٧٨١٦) ، والبخاري (٧٢٥٣).

(٤) وهو لفظه أيضاً عند أحمد والبخاري.

قاله الأُصوليون: إنَّ المجتهد يجب عليه أن يجدِّد نظراً عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدِّم؛ لإمْكانِ أنْ يَظهر له ثانياً خلافُ ما ظهر له أوَّلاً، اللهمَّ إلَّا أنْ يكون ذاكراً لأركان اجتهاده، مائلاً إليه، فلا يحتاج إلى استئنافِ نظرٍ في أمارةٍ أخرى[١].

**التاسعة**: إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسُّنَن والقياس، وقضاءِ مَن مضى؛ لأنَّ اجتهاده عبادةٌ، ولا يؤجَر على الخطأ، بل يوضع عنه الإثم فقط، فأمَّا مَن لم يكن محلًّا للاجتهاد فهو متكلِّفٌ لا يُعذر بالخطأ في الحكم، بل يُخاف عليه أعظمُ الوِزْر. يدلُّ على ذلك حديثُه الآخَر، رواه أبو داود: «القضاةُ ثلاثة»[٢] الحديث. قال ابن المنذر: إنَّما يؤجَر على اجتهاده في طلب الصَّواب، لا على الخطأ، ومما يؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ الآيةَ. قال الحسن: أثنى على سليمان ولم يذمَّ داود.

**العاشرة**: ذكر أبو التمام المالكيّ[٣] أنَّ مذهب مالك: أنَّ الحقَّ في واحدٍ من أقاويل المجتهدين، وليس ذلك في أقاويل المختلفين. وبه قال أكثر الفقهاء. قال: وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكاً عن اختلاف الصحابة، فقال: مخطئٌ ومُصيب، وليس الحقُّ في جميع أقاويلهم. وهذا القول قيل: هو المشهورُ عن مالك، وإليه ذهب محمد بن الحسن. واحتجَّ مَن قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو؛ قالوا: وهو نصٌّ

---

(١) المفهم ٥/ ١٦٧ .

(٢) سنن أبي داود (٣٥٧٣)، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥) من حديث بريدة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار؛ فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحقَّ فقضى به، ورجلٌ عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار». لفظ أبي داود.

(٣) علي بن محمد بن أحمد البصري، من أصحاب الأبهري، له كتاب مختصر في الخلاف يسمى نكت الأدلة، وله كتاب آخر في الخلاف كبير، وكتاب في أصول الفقه. ترتيب المدارك ٤/ ٦٠٥ ، والديباج المذهب ٢/ ١٠٠ . وكلامه ذكره الباجي في إحكام الفصول في أحكام الأصول ص٧٠٧ .

على أنَّ في المجتهدين وفي الحاكمين مخطئاً ومصيباً[١]. قالوا: والقولُ بأنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ يؤدِّي إلى كون الشيء حلالاً حراماً، وواجباً ندباً.

واحتجَّ أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر؛ قال: نادى فينا رسول الله ﷺ يومَ انصرف من الأحزاب: «ألَا لا يصلِّينَّ أحدٌ العصرَ إلَّا في بني قُرَيظَة». فتخوَّف ناسٌ فَوْتَ الوقت، فصلَّوا دون بني قُرَيظة، وقال الآخَرون: لا نصلِّي إلا حيث أَمَرَنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال: فما عنَّف واحداً من الفريقين[٢]. قالوا: فلو كان أحد الفريقين مخطئاً لعيَّنه النبيُّ ﷺ.

ويمكن أن يقال: لعلَّه إنما سكت عن تعيين المخطئ[٣] لأنه غيرُ آثمٍ بل مأجور، فاستغنى عن تعيينه. والله أعلم. ومسألةُ الاجتهاد طويلةٌ متشعِّبةٌ، وهذه النُّبذةُ التي ذكرناها كافيةٌ في معنى الآية، والله الموفِّق للهداية.

**الحادية عشرة:** ويتعلَّق بالآية فصلٌ آخَرُ: وهو رجوعُ الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهادٍ آخَرَ أرجحَ من الأوّل، فإنَّ داود عليه السلام فَعَلَ ذلك. وقد اختلف في ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى؛ فقال عبد الملك ومُطَرِّفٌ في «الواضحة»: ذلك له ما دام في ولايته، فأمَّا إن كانت ولايةٌ أخرى فليس له ذلك، وهو بمنزلة غيره من القضاة. وهذا هو ظاهرُ قول مالكٍ رحمه الله في «المدونة».

وقال سحنون في رجوعه من اجتهادٍ فيه قولٌ إلى غيره مما رآه أصوبَ: ليس له ذلك. وقاله ابن عبد الحكم. قالا: ويَستأنف الحكم بما قويَ عنده. قال سحنون: إلَّا أن يكون نسيَ الأقوى عنده، أو وَهَمَ فحَكَم بغيره، فله نَقْضُه، وأمَّا إن حكم بحكمٍ هو الأقوى عنده في ذلك الوقتِ، ثم قويَ عنده غيرُه بعد ذلك، فلا سبيلَ إلى نقض الأوّل؛ قاله سحنون في كتاب ابنه.

---

(١) إحكام الفصول ص٧١٠، وينظر جامع بيان العلم ٢/ ٨٨٥.

(٢) أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

(٣) في النسخ: المخطئين، والمثبت من المفهم ٥/ ١٧٥، والكلام منه.

وقال أشهبُ في كتاب ابن الموَّاز: إن كان رجوعه إلى الأصوب في مالٍ فله نقضُ الأوّل، وإن كان في طلاقٍ أو نكاحٍ أو عتقٍ فليس له نَقْضُه[١].

قلت: رجوعُ القاضي عمَّا حَكَم به إذا تبيَّن له أنَّ الحقَّ في غيره ما دام في ولايته أَوْلَى. وهكذا في رسالة عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما[٢]؛ رواها الدارقطنيّ[٣]، وقد ذكرناها في «الأعراف»[٤] ولم نفصِّل[٥]، وهي الحجة لظاهِرِ قولِ مالك. ولم يختلف العلماء أنَّ القاضيَ إذا قضى تجوُّزاً وبخلاف أهل العلم، فهو مردودٌ وإن كان على وجه الاجتهاد، فأمَّا أن يتعقَّب قاضٍ حُكْمَ قاضٍ آخَرَ فلا يجوز ذلك له؛ لأنَّ فيه مضرةً عُظْمَى من جهة نقضِ الأحكام، وتبديل الحلال بالحرام، وعَدَمِ ضبط قوانين الإسلام، ولم يتعرَّض أحدٌ من الخلفاء[٦] لنقض ما رآه[٧] الآخَر، وإنما كان يَحكُم بما يَظْهَر له.

**الثانية عشرة**: قال بعض الناس: إنَّ داود عليه السلام لم يكن أَنْفَذَ الحكم وظَهَر له ما قال غيره. وقال آخرون: لم يكن حُكْماً وإنما كانت فتيا[٨].

قلت: وهكذا تَأَوَّلَ[٩] فيما رواه أبو هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «بينما امرأتان معهما ابناهُما جاء الذئبُ فذهبَ بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ ، وينظر المدونة ٥/ ١٤٤ ، والنوادر والزيادات ٨/ ٩٧ - ٩٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ .

(٣) برقم (٤٤٧١)، وجاء فيها: ...لا يمنعك قضاءٌ قضيتَه راجعتَ فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك أن تُراجع الحقَّ؛ فإن الحق قديم، ومراجعةُ الحق خيرٌ من التمادي في الباطل...

(٤) ٩/ ١٦٨ .

(٥) في النسخ عدا (د): يفصل، والمثبت من (د).

(٦) في (م): العلماء، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ والكلام منه.

(٧) في (م): رواه، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ .

(٩) في (م): تؤول.

إنَّما ذهب بابنك أنتِ. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتَحاكَمتا إلى داودَ، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمانَ بنِ داود عليهما السلام فأَخْبرَتاه، فقال: ائتوني بالسكِّين أشقُّه بينكما، فقالت الصغرى: لا ـ يرحمكَ الله ـ هو ابنُها. فقضى به للصغرى» قال أبو هريرة: [واللهِ] إنْ سمعتُ بالسِّكِّين قطُّ إلَّا يومئذٍ، ما كنَّا نقول إلَّا المُدْية؛ أخرجه مسلم[١].

فأمَّا القولُ بأنَّ ذلك من داود [كان] فتيا فهو ضعيف؛ لأنه كان النبيَّ، وفُتياه حُكْمٌ. وأمَّا القولُ الآخَرُ فبعيدٌ[٢]؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ فبيَّن أنَّ كلَّ واحدٍ منهما كان قد حَكم[٣]. وكذا قولُه في الحديث: فقضى به للكبرى، يدلُّ على إنفاذ القضاء وإنجازه.

ولقد أَبْعَدَ من قال: إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى، [وهذا أيضاً فاسد؛ لأنَّ اللفظ ليس نصًّا في ذلك، و] لأنَّ الكبر والصغر طَرْدٌ مَحْضٌ عند الدعاوى، كالطُّول والقِصَر والسَّواد والبياض، وذلك لا يوجب ترجيحَ أحد المتداعِيَيْن حتى يُحكَم له أو عليه لأجل ذلك. وهذا مما يَقْطَع به مَن فَهِمَ ما جاءت به الشرائع.

والذي ينبغي أن يقال: إنَّ داود عليه السلام إنَّما قضى به للكبرى لسببٍ اقتضى عنده ترجيحَ قولها، ولم يُذكر في الحديث تعيينُه[٤] إذ لم تَدْعُ حاجةٌ إليه، فيمكن أن [يقال: إنَّ] الولد كان بيدها، وعَلِمَ عَجْزَ الأخرى عن إقامة البينة، فقضى به لها إبقاءً لمَا كان على ما كان. وهذا التأويلُ أحسنُ ما قيل في هذا الحديث. وهو الذي تشهد له

---

(١) في صحيحه (١٧٢٠)، وهو عند أحمد (٨٢٨٠)، والبخاري (٣٤٢٧)، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) في (د) و(م): فيبعد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) في (د): بعينه.

قاعدةُ الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلافُ الشرائع فيها.

لا يقال[١]: فإنْ كان داود قضى بسببٍ شرعيٍّ، فكيف ساغ لسليمانَ نَقْضُ حكمه؟ فالجواب: أنَّ سليمان عليه السلام لم يتعرَّض لحكم أبيه بالنَّقْض، وإنَّما احتال حيلةً لطيفةً ظهر له بسببها صدقُ الصغرى، وهي أنه لمَّا قال: هاتِ السكينَ أشقُّه بينكما، قالت الصغرى: لا. فظهر له من قرينة الشفقة في الصغرى، وعُدْمِ ذلك في الكبرى، مع ما عساه انضاف إلى ذلك من القرائن، ما حصل له العلم بصِدْقها فحكم لها. ولعلَّه كان ممن سوِّغ له أن يحكم بعلمه[٢].

وقد ترجم النَّسائيُّ على هذا الحديث: حكم الحاكم بعلمه. وتَرجَم له أيضاً: السعة للحاكم أن يقول للشيء الذي لا يَفعله أَفْعلُ ليستبين الحقّ. وتَرجم له أيضاً: نَقْضُ الحاكم ما يَحكم به غيرُه ممن هو مِثْلُه أو أَجَلُّ منه[٣].

ولعل الكبرى اعترفت بأنَّ الولد للصغرى عندما رأت من سليمان الحزمَ والجِدَّ في ذلك، فقضى بالولد للصغرى. ويكونُ هذا كما إذا حَكم الحاكم باليمين، فلما مضى ليحلف؛ حَضَر مَن استخرج من المنكِر ما أوجب إقرارَه، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين وبعدها، ولا يكون ذلك من باب نَقْضِ الحكم الأوّل، لكنْ من باب تبدُّل الأحكام بحسب تبدُّل الأسباب. والله أعلم[٤].

وفي هذا الحديث من الفقه: أنَّ الأنبياء سوِّغ لهم الحكم بالاجتهاد، وقد ذكرناه[٥].

وفيه من الفقه: استعمالُ الحكَّام الحيلَ التي تُستخرج بها الحقوق، وذلك يكون

---

(١) في المفهم ٥/ ١٧٦ (والكلام وما سلف بين حاصرتين منه): فإن قيل.

(٢) المفهم ٥/ ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٢٣٤ و٢٣٦ .

(٤) المفهم ٥/ ١٧٦ .

(٥) في المسألة السادسة، والكلام من المفهم ٥/ ١٧٦ .

عن قوّة الذكاء والفطنة، وممارسةِ أحوال الخَلْق؛ وقد يكون في أهل التقوى فِراسةٌ دينية، وتوسُّماتٌ نُورية، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء. وفيه الحجة لمن يقول: إنَّ الأمَّ تُستلحَق، وليس مشهورَ مذهب مالك[١]، وليس هذا موضعَ ذكره. وعلى الجملة فقضاءُ سليمانَ في هذه القصة تضمَّنها مَدْحُه تعالى له بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

**الثالثة عشرة**: قد تقدَّم القول في الحرث[٢]، والحكمُ في هذه الواقعة في شرعنا: أنَّ على أصحاب المواشي حفظها بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار، ثم الضمانُ في المِثْل بالمِثْليَّات، وبالقيمة في ذوات القيم. والأصلُ في هذه المسألة في شرعنا ما حَكَم به نبيُّنا ﷺ في ناقة البراء بن عازب؛ رواه مالك، عن ابن شهاب، عن حرام بن سعد بن مُحيِّصة: أنَّ ناقةً للبراء دخلت حائطَ رجلٍ فأفسدتْ فيه، فقضى رسول الله ﷺ أنَّ على أهل الحوائط حفظَها بالنهار[٣]، وأنَّ ما أفسدت المواشي بالليل ضامنٌ على أهلها[٤].

هكذا رواه جميع رواة [الموطأ][٥] مرسَلاً. وكذلك رواه أصحابُ ابن شهاب عن ابن شهاب، إلَّا ابنَ عيينة، فإنه رواه عن الزهري عن سعيد [ابن المسيب] وحرام بن سعد بن مُحيِّصة: أنَّ ناقة، فذكر مثلَه بمعناه[٦].

ورواه ابن أبي ذئبٍ عن ابن شهاب: أنه بلغه أنَّ ناقةً للبراء دخلت حائط قوم،

---

(١) المفهم ٥/ ١٧٧ .

(٢) في المسألة الأولى.

(٣) في النسخ: بالليل، وهو خطأ.

(٤) الموطأ ٢/ ٧٤٧ ، وأخرجه موصولاً أحمد (١٨٦٠٦) و(٢٣٦٩١)، وأبو داود (٣٥٧٠)، وابن ماجه (٢٣٣٢).

(٥) في النسخ: جميع الرواة، والمثبت من التمهيد ١١/ ٨١ ، والاستذكار ٢٢/ ٢٥١ . والكلام وما بين حاصرتين منهما.

(٦) أخرجه أحمد (٢٣٦٩٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦١٦٠)، والبيهقي ٨/ ٣٤٢ ، وابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٨٩ من طريق ابن عينية بالإسناد المذكور.

مثلَ حديث مالك سواء، إلَّا أنه لم يذكرُ حرام بنَ سعد بن محيصة ولا غيره. قال أبو عمر[١]: ولم يصنع ابن أبي ذئب شيئاً؛ لأنه[٢] أفسد إسناده. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهريِّ، عن حرام بن محيِّصةَ، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ، ولم يتابَع عبد الرزاق على ذلك، وأنكروا عليه قولَه: عن أبيه[٣].

ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال: حدثني أبو أمامَة بنُ سهل بنِ حنيف: أنَّ ناقةً دخلت في حائط قومٍ فأفسدت[٤]. فجعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة، ولم يَذكر أنَّ الناقة كانت للبراء. وجائزٌ أن يكون الحديث عند[٥] ابن شهاب عن ابن مُحيِّصة، وعن سعيد بن المسيِّب، وعن أبي أمامة، والله أعلم. فحدَّث به عمَّن شاء منهم على ما حَضَره، وكلُّهم ثقات.

قال أبو عمر[٦]: وهذا الحديث وإن كان مرسلاً فهو حديثٌ مشهورٌ أرسله الأئمة، وحدَّث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقَّوه بالقبول، وجرى في المدينة العملُ به، وحَسْبُكَ باستعمال أهل المدينة وسائرِ أهل الحجاز لهذا الحديث.

**الرابعة عشرة**: ذهب مالكٌ وجمهورُ الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعةٌ من الكوفيين إلى أنَّ هذا الحكم منسوخ، وأنَّ البهائم إذا أفسدت زرعاً في ليلٍ أو نهارٍ أنه لا يلزم صاحبَها شيء، وأَدْخَلَ فسادها في عموم قوله ﷺ: «جُرحُ العَجْماءِ جُبَارٌ»، فقاس جميعَ أفعالها على جرحها. ويقال: إنه ما تقدَّم أبا حنيفةَ أحدٌ بهذا القول[٧]، ولا حجةَ له ولا لمَن تَبعه في حديث العجماء،

---

(١) في التمهيد ١١/ ٨١ .

(٢) في (م): إلا أنه، والمثبت من النسخ الخطية والتمهيد.

(٣) التمهيد ١١/ ٨١ ، والحديث في مصنف عبد الرزاق (١٨٤٣٧)، ومن طريقه أخرجه أبو داود (٣٥٦٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٨٤٣٨).

(٥) في (م): عن، والمثبت من النسخ الخطية والاستذكار ٢٢/ ٢٥١ ، والكلام منه.

(٦) في التمهيد ١١/ ٨٢ .

(٧) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٠١ - ٥٠٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٢ - ٩٣ ، وقوله: «جرح العجماء جبار» قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧١٢٠)، والبخاري (٦٩١٢)، ومسلم (١٧١٠) عن أبي هريرة ﷺ. والجبار: الذي لا قَوَد فيه ولا دية ولا شيء. المفهم ٥/ ١٤٤ .

وكونِه ناسخاً لحديث البراء ومُعارضاً له؛ فإنَّ النَّسْخَ شروطُه معدومة، والتعارُضُ إنما يصحُّ إذا لم يمكن[١] استعمالُ أحدهما إلَّا بنفي الآخَر، وحديثُ: «العجماءُ جُرْحُها جُبَار» عمومٌ متفقٌ عليه، ثم خُصَّ منه الزرع والحوائط بحديث البراء؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لو جاء عنه في حديث واحد: العجماءُ جُرْحُها جُبَارٌ نهاراً لا ليلاً، وفي الزرع والحوائط والحرث [دون غيره]، لم يكن هذا مستحيلاً من القول، فكيف يجوز أن يقال في هذا: متعارض؟! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكورٌ في الأصول.

**الخامسة عشرة**: إن قيل: ما الحكمةُ في تفريق الشارع بين الليل والنهار؟ وقد قال الليث بن سعد: يضمَن أربابُ المواشي بالليل والنهار كلَّ ما أفسدتْ[٢]، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية؟

قلنا: الفرقُ بينهما واضح، وذلك أنَّ أهل المواشي بهم ضرورةٌ إلى إرسال مواشيهم لترعى بالنهار، والأغلبُ عندهم أنَّ مَن عنده زرعٌ، يتعاهدُه بالنهار ويحفظُه عمَّن أراده، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع؛ لأنه وقتُ التصرُّف في المعاش، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كلُّ شيء إلى موضعه وسكنه، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، ويردُّ أهل المواشي مواشيَهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرَّط صاحبُ الماشية في ردِّها إلى منزله، أو فرَّط في ضَبْطِها وحَبْسِها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئاً، فعليه ضمانُ ذلك[٣]، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح،

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): يكن، والمثبت من (خ) و(م) والتمهيد ١١/ ٨٦، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٨٤، والاستذكار ٢٢/ ٢٥٥ بلفظ: يضمن ربُّ الماشية ما أفسدت بالليل والنهار...

(٣) التمهيد ١١/ ٨٦ - ٨٧.

وكان ذلك أرفقَ بالفريقين، وأسهلَ على الطائفتين، وأحفظَ للمالين، وقد وضح الصبحُ لذي عينين، ولكن لسليم الحاسَّتين.

وأمَّا قولُ الليث: لا يضمن أكثرَ من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر: لا أعلم مِن أين قال هذا الليثُ بن سعد؟ إلَّا أنْ يجعله قياساً على العبد الجاني [أنه] لا يُفْتَكُّ بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيدَه في جنايته أكثرُ من قيمته، وهذا ضعيفُ الوجه. كذا قال في «التمهيد»[١]. وقال في «الاستذكار»[٢]: فخالَفَ الحديثَ في «العجماءُ جرحُها جبار»، وخالَفَ [حديثَ] ناقةِ البراء، وقد تقدَّمه إلى ذلك طائفةٌ من العلماء؛ منهم عطاء؛ قال ابن جريج: قلتُ لعطاء: الحرثُ تصيبه الماشيةُ ليلاً أو نهاراً؟ قال: يضمن صاحبها ويغرم. قلت: كان عليه حَظْرٌ أو لم يكن؟ قال: نعم. قلت: ما يغرم؟ قال: قيمة ما أكل حماره ودابَّتُه وماشيته. وقال معمر عن ابن شُبْرُمة: يُقوَّم الزرع على حاله التي أصيب عليها دراهمَ. وروي عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: يضمن ربُّ الماشية ليلاً ونهاراً[٣]، من طرقٍ لا تصحّ.

**السادسة عشرة:** قال مالك: ويقوَّم الزرع الذي أفسدت المواشي بالليل على الرجاء والخوف. قال: والحوائطُ التي تُحرس والتي لا تحرس، والمحظَّرُ عليها وغيرُ المحظَّرِ سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغاً ما بلغ، وإن كان أكثرَ من قيمتها. قال: وإذا انفلتت دابةٌ بالليل فوطئت على رجلِ نائم لم يغرم صاحبها شيئاً، وإنما هذا في الحائط والزرع والحرث؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم. وقال ابن القاسم: ما أفسدت الماشية بالليل فهو في مال ربِّها وإن كان أضعافَ ثمنها؛ لأنَّ الجناية من قِبَله؛ إذ لم يربطها، وليست الماشية كالعبيد؛ حكاه سحنون وأصبغُ وأبو زيد عن ابن القاسم[٤].

---

(١) ١١/ ٨٤ - ٨٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ٢٢/ ٢٥٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): أو نهاراً، والمثبت من باقي النسخ والاستذكار، وخبرا عطاء وابن شبرمة أخرجهما عبد الرزاق (١٨٤٢٩) و(١٨٤٣١).

(٤) التمهيد ١١/ ٨٢ - ٨٣ .

**السابعة عشرة**: ولا يُستأنَى بالزَّرع أن ينبت أو لا ينبت كما يُفعل في سنِّ الصغير. وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمتُه لو حلَّ بيعه. وقال أشهبُ وابن نافع في «المجموعة» عنه: وإن لم يَبْدُ صلاحُه. ابن العربيِّ[١]: والأوّلُ أقوى لأنَّها صفته، فيقوَّم كما يقوَّم كلُّ متلَفٍ على صفته.

**الثامنة عشرة**: لو لم يُقْضَ للمفسَد له[٢] بشيء حتى نَبَتَ وانجبر، فإن كان فيه قبلَ ذلك منفعةُ رعيٍ أو شيء ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعةٌ فلا ضمان. وقال أصبغ: يضمن؛ لأنَّ التلف قد تحقَّق، والجبر ليس من جهته؛ فلا يعتدُّ له به.

**التاسعة عشرة**: وقع في كتاب ابن سحنون: أنَّ الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطانٌ مُحْدَقة، وأمَّا البلادُ التي هي زروعٌ متَّصلةٌ غيرُ مُحظَرة، وبساتينُ كذلك، فيضمن أربابُ النَّعم ما أفسدت من ليلٍ أو نهار. كأنه ذهب إلى أنَّ ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تعدٍّ؛ لأنها ولابدَّ تُفْسِد[٣]. وهذا جنوحٌ إلى قول الليث.

**الموفية عشرين**: قال أصبغُ في «المدنيَّة»[٤]: ليس لأهل المواشي أن يُخرجوا مواشيَهم إلى قرى الزرعِ بغير ذُوَّاد. فركَّب العلماء على هذا أنَّ البقعة لا تخلو أن تكون بقعةَ زرعٍ، أو بقعةَ سَرْحٍ؛ فإن كانت بقعةَ زرعٍ فلا تدخلها ماشيةٌ إلا ماشيةٌ تجتاح [في الزرع]، وعلى أربابها حِفْظُها، وما أفسدتْ فصاحبُها ضامنٌ ليلاً أو نهاراً. وإن كانت بقعةَ سرحٍ فعلى صاحب [الزرع] الذي حَرَثَه فيها حِفْظُه، ولا شيءَ على أرباب المواشي[٥].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٧ (والكلام منه): في المفسد، بدل للمفسد له.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ .

(٤) «المدنيَّة» مجموعة كتب لعبد الرحمن بن دينار المالكي الأندلسي، سمعها منه أخوه عيسى بن دينار وعرضها على ابن القاسم. ترتيب المدارك ٣/ ١٥ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٧ - ١٢٥٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

**الحادية والعشرون**: المواشي على قسمين: ضَوَاري وحَريسة[١]، و عليهما قسمها مالك. فالضَّواري هي المعتادةُ للزرع والثمار، فقال مالك: تُغرَّبُ وتباع في بلدٍ لا زَرْعَ فيه؛ رواه ابن القاسم في «الكتاب» وغيره. قال ابن حبيب: وإن كره ذلك ربُّها، وكذلك قال مالك في الدابَّة التي ضَرِيَتْ[٢] إفساد الزرع: تغرَّبُ وتباع. وأمَّا ما يُستطاع الاحتراسُ منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه.

**الثانية والعشرون**: قال أصبغ: النَّحلُ والحمام والإوزُّ والدجاج كالماشية، لا يُمنع صاحبها من اتِّخاذها وإن أضرَّت، وعلى أهل القرية حِفْظُ زروعهم. قال ابن العربيِّ[٣]: وهذه روايةٌ ضعيفةٌ لا يُلتفت إليها، مَن أراد أن يتَّخذ ما ينتفع به مما لا يضرُّ بغيره مُكِّن منه، وأمَّا انتفاعُه بما يتَّخذه بإضراره بأحدٍ فلا سبيل إليه. قال عليه الصلاة والسلام: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ»[٤]. وهذه الضواري عن ابن القاسم في «المدنيَّة»: لا ضمانَ على أربابها إلَّا بعد التقدُّم. ابن العربيِّ: وأرى الضمان عليهم قبل التقدُّم إذا كانت ضواري.

**الثالثة والعشرون**: ذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الشعبيِّ: أنَّ شاةً وقعت في غزل حائكٍ، فاختصموا إلى شُرَيح، فقال الشَّعبيُّ: انظُروه فإنه سيسألهم: أليلا وقعت فيه أم[٥] نهاراً؟ ففعل، ثم قال: إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريحٌ: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: والنَّفَشُ بالليل، والهَمَل بالنهار[٦].

---

(١) الحريسة: فعيلة بمعنى مفعولة، أي: إن لها مَن يحرسها ويحفظها. والمواشي الضارية: هي المعتادة لرعي زروع الناس. النهاية (حرس) و(ضري).

(٢) أي اعتادت، ووقع بعدها في (د) و(م): في، وفي (ظ): على، والمثبت من (خ) و(ز)، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٨ ، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٨ ، وما قبله منه.

(٤) سلف ٦/ ٨١ .

(٥) في النسخ: أو، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٦) الاستذكار ٢٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣ ، والخبر في مصنف عبد الرزاق (١٨٤٣٩).

قلت: ومن هذا البابِ قولُه ﷺ: «العجماءُ جرحُها جُبَارٌ» الحديث. وقال ابن شهاب: والجُبار الهدر، والعجماء البهيمة[١]. قال علماؤنا: ظاهرُ قوله: «العجماءُ جُرْحُها جُبَار» أنَّ ما انفردت البهيمةُ بإتلافه لم يكن فيه شيءٌ، وهذا مُجْمَعٌ عليه. فلو كان معها قائدٌ أو سائقٌ أو راكبٌ، فحملها أحدهم على شيء فأتلفته، لزمه حكمُ المتلَف؛ فإن كانت جنايةً مضمونةً بالقصاص، وكان الحملُ عمداً، كان فيه القصاصُ ولا يُختلف فيه؛ لأنَّ الدابَّة كالآلة. وإن كان عن غير قصدٍ؛ كانت فيه الديةُ على العاقلة، وفي الأموال الغرامةُ في مال الجاني[٢].

**الرابعة والعشرون**: واختلفوا فيمَن أصابته برجلها أو ذَنَبها، فلم يضمِّن مالكٌ والليث والأوزاعيُّ صاحبها، وضمَّنه الشافعيُّ وابن أبي ليلى وابن شُبْرُمة. واختلفوا في الضَّارِيَة؛ فجمهورُهم أنَّها كغيرها، ومالكٌ وبعضُ أصحابه يضمِّنونه[٣].

**الخامسة والعشرون**: روى سفيان بن حسين، عن الزُّهريِّ، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّجْلُ جُبَارٌ»[٤] قال الدارقطنيُّ: لم يَرْوِه غيرُ سفيان بنِ حسين ولم يتابَع عليه، وخالفه الحُفَّاظ عن الزُّهريِّ؛ منهم مالكٌ وابنُ عيينةَ ويونسُ ومعمرٌ وابنُ جُريج والزبيديُّ وعقيلٌ وليث بنُ سعد وغيرهم، كلُّهم رَوَوْه عن الزُّهريِّ فقالوا: «العجماءُ جُبَارٌ، والبئر جُبَارٌ، والمعدنُ جُبَار»[٥] ولم يذكروا الرِّجل، وهو الصَّواب. وكذلك رواه أبو صالح السمان، وعبد الرحمن الأعرج، ومحمد بنُ سيرين، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة، لم يذكروا

---

(١) سنن الدارقطني (٣٣٠٤).

(٢) المفهم ٥/ ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٩٢)، والنسائي في الكبرى (٥٧٥٦)، والدارقطني (٣٣٠٦) و(٣٣٨٤)، وكلامه بعده فيه.

(٥) سلف تخريجه في المسألة الرابعة عشرة.

فيه: «والرِّجلُ جُبَارٌ»، وهو المحفوظُ عن أبي هريرة.

**السادسة والعشرون**: قولُه: «والبئر جُبار» قد رُوي موضعه: «والنار»؛ قال الدارقطنيُّ[١]: حدّثنا حمزة بن القاسم الهاشميُّ، حدَّثنا حنبل بن إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بنَ حنبل يقول في حديث عبد الرزَّاق: حديثُ أبي هريرة: «والنارُ جُبَار» ليس بشيء، لم يكن في الكتاب[٢]، باطلٌ ليس هو بصحيح.

حدَّثنا محمد بن مَخْلَد، حدَّثنا أبو إسحاق إبراهيم بنُ هانئ قال: سمعت أحمد ابن حنبل يقول: أهلُ اليمن يكتبون النار: النير، ويكتبون البِير ـ يعني مثلَ ذلك ـ وإنما لُقِّن عبد الرزاق: «النار جبار»[٣]. قال الرَّمَاديّ[٤]: قال عبد الرزاق: قال معمر: لا أراه إلَّا وَهَمَاً.

قال أبو عمر: رويَ عن النبيِّ ﷺ [من] حديث مَعْمَر، عن همَّام بن مُنبِّه، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «النار جُبار»[٥] وقال يحيى بن مَعِين: أصلُه: البئر، ولكنَّ معمراً صحَّفه. قال أبو عمر: لم يأتِ ابن مَعِين على قوله هذا بدليل، وليس هكذا تُردُّ أحاديثُ الثقات. ذكر وكيع، عن عبد العزيز بن حصين، عن يحيى بن يحيى الغسانيِّ

---

(١) في سننه (٣٣٠٨).

(٢) في مطبوع سنن الدارقطني: لم يكن في الكتب.

(٣) سنن الدارقطني (٣٣٠٩)، وحديث «النار جبار» أخرجه النسائي في الكبرى (٥٧٥٧)، وابن ماجه (٢٦٧٦)، والدارقطني (٣٣٠٧) من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبِّه، عن أبي هريرة به. وأخرجه أبو داود (٤٥٩٤) وابن حزم في المحلى ١١/ ٢٠ ، من طريق عبد الملك الصنعاني، عن معمر به. قال الخطابي في معالم السنن ٤/ ٤٠ : لم أزل أسمع أصحاب الحديث يقولون: غلط فيه عبد الرزاق، إنما هو: البئر، حتى وجدته لأبي داود عن عبد الملك الصنعاني عن معمر، فدلَّ أن الحديث لم ينفرد به عبد الرزاق. اهـ. وقال ابن حزم: هذا خبر صحيح تقوم به الحجة. وتتمة الكلام في هذا الحديث سترد من قول ابن عبد البر رحمه الله.

(٤) هو أحمد بن منصور، وذكر قوله الداقطني إثر الحديث (٣٣٠٧)، وهو الذي رواه عن عبد الرزاق عند الدارقطني.

(٥) في الاستذكار ٢٥/ ٢١٦ - ٢١٧ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

قال: أحرق رجل تبناً[١] في قَرَاحٍ له، فخرجت شررةٌ من نارٍ حتى أحرقت شيئاً لجاره. قال: فكتبت[٢] فيه إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ[٣]، فكتب إليَّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «العجماءُ جُبار» وأرى أنَّ النار جُبَار[٤].

وقد رُوي: «والسائمةُ جُبار»[٥] بدل العجماء. فهذا ما ورد في ألفاظ هذا الحديث، ولكلٍّ معنًى لفظٌ صحيحٌ مذكورٌ في شرح الحديث وكتب الفقه.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ قال وَهْب: كان داودُ يمرُّ بالجبال مسبِّحاً والجبالُ تُجاوِبُه بالتسبيح، وكذلك الطير.

وقيل: كان داود إذا وجد فَترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق؛ ولهذا قال: «وَسَخَّرْنَا» أي: جعلناها بحيث[٦] تطيعه إذا أمرها بالتسبيح.

وقيل: إنَّ سيرها[٧] معه [هو] تسبيحُها، والتسبيحُ مأخوذٌ من السباحة[٨]، دليله قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال قتادة: «يُسَبِّحْنَ»: يُصلِّيْنَ معه إذا صلَّى[٩]، والتسبيحُ: الصلاة. وكلٌّ مُحتمِلٌ. وذلك فِعْلُ الله تعالى بها؛ ذلك لأنَّ الجبال لا تعقِل، فتسبيحُها دلالةٌ على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمُحْدثين.

---

(١) في (م): سافى، وفي (د): ساقى، وفي (ظ): بيتا في، والمثبت من (خ) و(ز) والاستذكار.

(٢) في النسخ: فكتب، والمثبت من الاستذكار.

(٣) بعدها في (د) و(ز) و(م): ابن حصين.

(٤) الاستذكار ٢٥/ ٢١٧، وأخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٣٩٧ - ٣٩٨، ومن طريقه ذكره ابن حزم في المحلى ١١/ ٢٠. والقراح: الأرض لا ماء فيها ولا شجر، أو المخلَّصة للزرع والغرس. القاموس (قرح).

(٥) أخرجه الدارمي (٢٣٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٨١٠) من حديث جابر ﷺ. وأخرجه الدارقطني (٣٣١٠) من طريق هزيل بن شرحبيل عن النبي ﷺ، مرسلاً.

(٦) قوله: بحيث، ليس في (ظ).

(٧) في (ظ): تسخيرها.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤٦٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٩) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٢٨.

**قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾**

**فيه ثلاث مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ يعني اتِّخاذَ الدُّروع بإلانةِ الحديد له. واللَّبوسُ عند العرب: السلاحُ كلُّه؛ درعاً كان أو جَوْشَناً[١]، أو سيفاً أو رمحاً؛ قال الهُذَليُّ يصف رُمحاً:

ومَعِي لَبُوسٌ لِلْبَئِيسِ كأنَّهُ رَوْقٌ بجبهةِ ذي نِعَاجٍ مُجْفِلِ[٢]

واللَّبوسُ: كلُّ ما يُلبس، وأنشد ابن السِّكِّيت:

الْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها إمَّا نَعِيمَها وإمَّا بُوسَهَا[٣]

وأراد الله تعالى هنا الدِّرع، وهو بمعنى الملبوس، نحو الرَّكوب والحَلُوب. قال قتادة: أوّلُ مَن صنع الدروع داود، وإنَّما كانت صفائحَ، فهو أوّلُ من سَرَدَها وحَلَّقها[٤].

**الثانية:** قوله تعالى: ﴿لِيُحْصِنَكُمْ﴾: ليُحرِزَكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: من حربكم. وقيل: من السيف والسَّهم والرمح، أي: من آلةِ بأسكم، فحذف المضاف. ابن عباس: من سلاحكم. الضحَّاك: من حرب أعدائكم[٥]. والمعنى واحدٌ.

وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفصٌ ورَوْحٌ: ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ بالتاء ردًّا على

---

(١) الجوشن: اسم الحديد الذي يلبس من السلاح. اللسان (جشن).

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٣٢٩، والهذلي هو أبو كبير عامر بن الحُلَيْس، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٩٨، وقال شارحه: ذي نعاج، يعني ثوراً. والرَّوْق: القَرْن. اهـ. والبئيس: الشجاع. القاموس (بئس).

(٣) الصحاح (لبس)، وإصلاح المنطق ص٣٦٧، والرجز لبيهس الفزاري كما في جمهرة الأمثال ٢/ ٢١٢، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٦٥٩، والخزانة ١١/ ١٠٣.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧، والطبري ١٦/ ٣٢٩.

(٥) ذكر خبر ابن عباس وخبر الضحاك الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٠.

الصَّنْعة[١]، وقيل: على اللَّبوس والمَنَعة التي هي الدروع. وقرأ شيبةُ وأبو بكر والمفضَّل ورُوَيس وابن أبي إسحاق: «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون[٢]؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾. وقرأ الباقون بالياء؛ جعلوا الفعل للَّبوس، أو يكون المعنى: ليُحْصِنكم الله.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي: على تيسير نعمة الدروع لكم. وقيل: «هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ» بأن تطيعوا رسولي.

**الثالثة**: هذه الآيةُ أصلٌ في اتِّخاذ الصنائع والأسباب، وهو قولُ أهلِ العقول والألباب، لا قولُ الجَهَلةِ الأغبياء القائلين بأنَّ ذلك إنَّما شُرع للضُّعفاء، فالسببُ سُنَّةُ الله في خَلْقِه، فَمَن طَعَنَ في ذلك فقد طَعَنَ في الكتاب والسُّنة، ونَسَبَ مَن ذَكَرْنا إلى الضَّعْفِ وعَدمِ المِنَّة. وقد أخبر الله تعالى عن نبيِّه داودَ عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضاً يصنع [القفَّةَ من] الخُوص[٣]، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدمُ حَرَّاثاً، ونوحٌ نجَّاراً، ولقمانُ خيَّاطاً، وطالوتُ دَبَّاغاً، وقيل: سَقَّاءً. فالصنعةُ يكفُّ بها الإنسان نفسَه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس. وفي الحديث: «إنَّ الله يحبُّ المؤمن المُحترِفَ الضعيفَ[٤] المتعفِّفَ، ويبغض السائل الملحِف»[٥]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة الفرقان[٦]. وقد تقدَّم في غيرِ ما آيةٍ[٧]

---

(١) في (د) و(م): الصفة، والمثبت من باقي النسخ وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٥ . والقراءة عن حفص وابن عامر في السبعة ص٤٣٠ ، والتيسير ص١٥٥ ، وعن أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٢٤ .

(٢) السبعة ص٤٣٠ ، والتيسير ص١٥٥ عن أبي بكر، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن رُوَيْس.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص٩٣ عن عروة بن الزبير، وما بين حاصرتين منه، وقد سلف بنحوه ٧/ ٢٢٣ . والخوص بالضم: ورق النخل. القاموس (خوص).

(٤) في (ظ): والضعيف.

(٥) أخرجه ابن عدي ١/ ٣٦٩ ، وابن الجوزي في العلل (٩٦٨) مختصراً بلفظ: «إن الله يحب المؤمن المحترف» وقد سلف ٥/ ٢٩١ . وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (١٠٤٤٢) من حديث أبي مسعود البدري ﷺ، والبزار (٢٠٣١ - كشف) من حديث أبي هريرة ﷺ، والطبري ٥/ ٣١ - ٣٢ عن قتادة عن النبي ﷺ، وهذه كلها أسانيد ضعيفة أو مرسلة. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ١/ ٢٣٩ : ولم يصح لهذا الحديث أصل، ولا عرف له سند.

(٦) عند تفسير الآية (٢٠) منها.

(٧) ينظر ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢ ، و ١٠/ ١٥٨ وما بعدها.

ما فيه كفايةٌ، والحمد لله.

**قوله تعالى:** ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخَّرْنا لسليمان الريح عاصفةً، أي: شديدةَ الهُبوب. يقال منه: عَصفت الريحُ، أي: اشتدَّت، فهي ريحٌ عاصِفٌ وعَصُوف. وفي لغةِ بني أسد: أعْصَفت الريحُ فهي مُعْصِفٌ ومُعْصِفة[1]. والعَصْفُ: التِّبن، فسمِّي به شدةُ الرِّيح؛ لأنها تعصفه بشدَّة تطيرها[2].

وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسُّلَميُّ[3] وأبو بكر: «ولِسليمانَ الرِّيحُ»[4] برفع الحاء على القطع ممَّا قبله؛ والمعنى: ولسليمان تسخيرُ الريح؛ ابتداءٌ وخبر.

﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني الشام. يُروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد، ثم تردُّه إلى الشام. وقال وهبٌ: كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجنُّ والإنس حتى يجلس على سريره. وكان امْرَأً غزَّاءً لا يقعد عن الغزو، فإذا أراد أن يغزو أمر بخُشبٍ، فمدَّتْ ورُفع عليها الناسُ والدَّوَابُّ وآلةُ الحرب، ثم أمر العاصِفَ فأقلَّت ذلك، ثم أمر الرُّخَاءَ فمرَّت به شهراً في رَوَاحِه وشهراً في غُدُوِّه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[5] [ص: ٣٦]. والرخاء اللينة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي: بكلِّ شيء عملنا عالمين بتدبيره.

---

(١) الصحاح (عصف).

(٢) في (ظ): تطيره، ووقع في النكت والعيون ٣/ ٤٦٠ (والكلام منه): لأنها تعصفه لشدة تكسيرها له.

(٣) قوله: والسلمي، ليس في (ظ).

(٤) القراءات الشاذة ص٩٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٣٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٦ عن عبد الرحمن الأعرج، وهي في البحر ٦/ ٣٣٢، والدر المصون ٨/ ١٨٧ - ١٨٨ عن الأعرج وأبي بكر، ولم نقف عليها عن السلمي، وقراءة أبي بكر ـ وهو شعبة ـ المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٣٣١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخرنا له مَن يغوصون، يريد: تحت الماء. أي: يستخرجون له الجواهرَ من البحر. والغَوْصُ: النزول تحت الماء، وقد غاص في الماء، والهاجِمُ على الشيء غائصٌ. والغوَّاص: الذي يغوص في البحر على اللُّؤلؤ، وفعلُه: الغِيَاصة[١].

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوى ذلك من الغَوْص؛ قاله الفرَّاء[٢]. وقيل: يراد بذلك: المحاريبُ والتماثيل وغيرُ ذلك ممَّا يسخِّرهم فيه. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لأعمالهم. وقال الفرَّاء: حافظين لهم مِن أن يُفْسِدوا أعمالهم[٣]، أو يهيجوا أحداً من بني آدم في زمان سليمان. وقيل: حافظين من أن يهربوا أو يمتنعوا. أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. وقد قيل: إن الحمَّام والنُّورةَ[٤] والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين.

**قوله تعالى:** ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: واذكر أيوبَ إذ نادى ربَّه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: نالني في بدني ضرٌّ وفي مالي وأهلي. قال ابن عباس: سمِّي أيوب لأنه آبَ إلى الله تعالى في كلِّ حال. وروي أنَّ أيوبَ عليه السلام كان رجلاً من الروم ذا مالٍ عظيم، وكان برًّا تقيًّا رحيماً بالمساكين، يكفُل الأيتام والأرامل، ويكرم

---

(١) الصحاح (غوص).

(٢) عبارة الفراء في معانيه ٢/ ٢٠٩ : ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون الغوص، يريد: سوى الغوص من البناء.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٩ .

(٤) النورة: الهِنَاء، والنُّورة من الحجر: الذي يحرق ويسوى منه الكلس، ويحلق به شعر العانة. ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٤ ، واللسان (نور).

الضيف، ويبلِّغ ابنَ السبيل، شاكراً لأَنْعُم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبَّارٍ عظيمٍ، فخاطبوه في أمر، فجعل أيوبُ يُلينُ له في القول من أجل زرعٍ كان له، فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضرِّ في جسمه حتى تَناثَر لحمه وتدوَّد جسمه، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه[١].

قال الحسن: مكث بذلك سبعَ سنين وستةَ أشهر[٢]. فلما أراد الله أن يفرِّج عنه قال الله تعالى له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فيه شفاؤك، وقد وهبتُ لك أهلك[٣] وولدك ومثلَهم معهم. وسيأتي في «ص»[٤] ما للمفسرين في قصة أيوبَ من تسليط الشيطان عليه، والردّ عليهم إن شاء الله تعالى.

واختلف في قول أيوب: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» على خمسةَ عَشَرَ قولاً:

الأوّل: أنه وثب ليصلِّيَ فلم يقدر على النُّهوض فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه؛ رواه أنسٌ مرفوعاً[٥].

الثاني: أنه إقرارٌ بالعجز، فلم يكن مُنافياً للصبر.

الثالث: أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجةً لأهل البلاء بعدَه في الإفصاح بما ينزل بهم.

الرابع: أنه أجراه على لسانه إلزاماً له في صفة الآدميِّ في الضَّعْف عن تحمُّل البلاء.

---

(١) ما ذكر المصنف عن تناثر لحم النبيِّ أيوب عليه السلام وتدوّد جسمه وإخراجه من القرية، وغير ذلك مما سيذكره المصنف عن مرضه المنفّر... كلُّه من الإسرائيليات، ولا تليق بعصمة الأنبياء عليهم السلام. قال القاسمي في محاسن التأويل ١١/ ٢٨٢: روى المفسرون هاهنا في بلاء أيوب روايات مختلفة بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن، ولا تُعار من الثقة أدنى نظر.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥٣.

(٣) بعدها في (م): ومالك.

(٤) عند تفسير الآية (٤١) منها.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٦٢.

الخامس: أنه انقطع الوحيُ عنه أربعين يوماً، فخاف هُجْرانَ ربِّه فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ». وهذا قول جعفر بن محمد[١].

السادس: أنَّ تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لمَّا أفضت حالُه إلى ما انتهت إليه؛ مَحَوْا ما كتبوا عنه، وقالوا: ما لهذا عند الله قَدْرٌ! فاشتكى الضرَّ في ذهاب الوحي والدِّين من أيدي الناس. وهذا ممَّا لم يصحَّ سنده، والله أعلم؛ قاله ابن العربيّ.

السابع: أنَّ دودةً سقطت من لحمه فأخذها وردَّها في موضعها، فعقرته فصاح: «مَسَّنيَ الضُّرُّ»، فقيل: أعلينا تتصبَّر. قال ابن العربي: وهذا بعيدٌ جدًّا، مع أنه يفتقر إلى نقلٍ صحيح، ولا سبيلَ إلى وجوده.

الثامن: أنَّ الدُّود كان يتناول بدنه، فصبر حتى تناولت دودةٌ قلبه، وأخرى لسانه، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» لاشتغاله عن ذكر الله. قال ابن العربيِّ: وما أحسنَ هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة.

التاسع: أنَّه أُبهم عليه جهةُ أخذِ البلاء له: هل هو تأديبٌ، أو تعذيبٌ، أو تخصيص، أو تمحيص، أو ذُخر، أو طُهْر، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» أي: ضرُّ الإشكال في جهةِ أخذِ البلاء. قال ابن العربي: وهذا غُلوٌّ لا يُحتاج إليه.

العاشر: أنه قيل له: سَل الله العافيةَ، فقال: أقمتُ في النعيم سبعين سنة، فأقيم في البلاء سبعين سنة[٢] وحينئذ أسأله، فقال: «مسَّنيَ الضُّرُّ». قال ابن العربيِّ: وهذا ممكنٌ ولكنه لم يصحَّ في إقامته مدةٌ[٣]، ولا في هذه القصة.

الحادي عشر: أنَّ ضرَّه قولُ إبليس لزوجه: اسجدي لي، فخاف ذهابَ الإيمان عنها، فتهلكُ ويبقى بغير كافل.

الثاني عشر: لمَّا ظهر به البلاء قال قومه: قد أَضرَّ بنا كونُه معنا وقَذَرُه، فليخرج

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٦٣.

(٢) في (م): وأقيم في البلاء سبع سنين.

(٣) بعدها في (م): خبر.

عنا، فأخرجته امرأته إلى ظاهر البلد، فكانوا إذا خرجوا رَأَوْه وتَطَيَّروا به وتشاءموا برؤيته، فقالوا: ليبعد بحيث لا نراه. فخرج إلى بعدٍ من القرية، فكانت امرأته تقوم عليه وتحمل قُوْتَه إليه. فقالوا: إنها تتناوله[١] وتُخالطنا، فيعود بسببه[٢] ضرُّه إلينا. فأرادوا قَطْعَها عنه، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ».

الثالث عشر: قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان لأيوبَ أخوان، فأتياه فقاما من بعيدٍ لا يقدران أن يدنوا منه من نَتَنِ ريحه، فقال أحدهما: لو علم الله في أيوبَ خيراً ما ابتلاه بهذا البلاء! فلم يسمع شيئاً أشدَّ عليه من هذه الكلمة، فعند ذلك قال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» ثم قال: اللهمَّ إنْ كنتَ تعلم أنِّي لم أَبِتْ شبعانَ قطُّ وأنا أعلم مكانَ جائع فصدِّقني. فنادى منادٍ من السماء: أنْ صَدَقَ عبدي، وهما يسمعان فخرَّا ساجِدَيْن[٣].

الرابع عشر: أنَّ معنى «مَسَّنيَ الضُّرُّ»: من شماتة الأعداء؛ ولهذا قيل له: ما كان أشدَّ عليك في بلائك؟ قال: شماتةُ الأعداء[٤]. قال ابن العربيّ: وهذا ممكنٌ فإنَّ الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

الخامس عشر: أن امرأته كانت ذاتَ ذوائبَ، فعَدِمَتْ[٥] حين مُنعتْ أن تتصرَّف لأحدٍ بسببه ما تَعُودُ به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممَّن يَصِلُها قوتاً وجاءت به إليه، وكان يستعين بذوائبها في تصرُّفه وتنقُّله، فلما عَدِمَها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر، فقال: «مَسَّني الضُّرُّ».

---

(١) في (د) و(ظ): تناوله.

(٢) في (ظ): بسببها.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٣ وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٧٧ .

(٤) عرائس المجالس ص١٦٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٣ .

(٥) في (م): فعرفت، وفي (د) و(ظ): فقدمت.

وقيل: إنَّها لمَّا اشترت القوتَ بذوائبها، جاءه إبليس في صفة رجل وقال له: إنَّ أهلك بَغَتْ فأُخذتْ وحُلِقَ شعرها. فحلف أيوب أن يجلدها[١]؛ فكانت المحنةُ على قلب المرأة أشدَّ من المحنة على قلب أيوب.

قلت: وقول سادس عشر: ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب: أنَّ رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوبَ النبيَّ ﷺ وما أصابه من البلاء، الحديث. وفيه: أنَّ بعض إخوانه ممن صابَرَه ولازَمَه قال: يا نبيَّ الله، لقد أعجبني أمرك، وذكرتُ[٢] إلى أخيك وصاحبك: أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفي جسدك منذ ثماني عشرةَ سنةً، حتى بلغتَ ما ترى، لا[٣] يرحمك فيكشف عنك! لقد أذنبتَ ذنباً ما أظنُّ أحداً بلغه! فقال أيوبُ عليه السلام: ما أدري ما تقولان! غيرَ أنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ يعلم أنِّي كنت أمرُّ على الرجلين يتزاعمان فكلٌّ يحلف بالله ـ أو على النَّفَر يتزاعمون ـ فأنقلبُ إلى أهلي فأكفِّر عن أيمانهم؛ إرادةَ ألَّا يأثمَ أحدٌ ذَكَره، ولا يَذْكُرَه أحدٌ إلَّا بالحقّ، فنادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وإنَّما كان دعاؤه عَرْضاً عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذي بلغه، صابراً لمَا يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث[٤].

وقولٌ سابع عشر، سمعتُه ولم أَقِفْ عليه: أنَّ دودةً سقطت من جسده، فطلبها ليردَّها إلى موضعها فلم يجدها، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» لمَا فَقَدَ من أَجْرِ أَلَمِ تلك

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٦١ بنحوه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وذكرته، والمثبت من (ظ) والزهد لابن المبارك.

(٣) في (ظ) و(م): ألا، والمثبت من باقي النسخ والزهد.

(٤) الزهد لابن المبارك (١٧٩ - زوائد نعيم). قوله: يتزاعمان، أي: يتداعيان شيئاً فيختلفان فيه فيحلفان عليه. النهاية (زعم).

وأخرجه البزار (٢٣٥٧ - كشف)، وأبو يعلى (٣٦١٧)، وابن حبان (٢٨٩٨)، والطبري ٢٠/ ١٠٩-١١٠، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥ من طريق نافع بن يزيد، عن عقيل (وهو ابن خالد الأيلي) عن ابن شهاب، عن أنس، عن النبي ﷺ. وصححه الحاكم، وقال أبو نعيم: غريب من حديث الزهري، لم يروه عنه إلا عقيل، ورواته متفق على عدالتهم، تفرد به نافع. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٥١١: وهذا رَفْعُه غريب جدًّا، والأشبه أن يكون موقوفاً.

الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفَّراً إلى وقت العافية، وهذا حسنٌ إلَّا أنَّه يحتاج إلى سند.

قال العلماء: ولم يكن قوله: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» جَزَعاً؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، بل كان ذلك دعاءً منه، والجزعُ في الشكوى إلى الخَلْق لا إلى الله تعالى، والدعاءُ لا يُنافي الرضا. قال الثعلبي: سمعتُ أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرتُ مجلساً غاصًّا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية، بعد إجماعهم على أنَّ قول أيوب كان شكايةً، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾؟ فقلت: ليس هذا شكايةً وإنما كان دعاء، بيانُه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ والإجابةُ تتعقَّب الدعاء لا الاشتكاءَ. فاستَحْسَنوه وارتَضَوْه.

وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال: عرَّفه فاقةَ السؤال لِيَمُنَّ عليه بكرم النَّوَال[1].

قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال مجاهد وعكرمة: قيل لأيوبَ ﷺ: قد آتيناك أهلك في الجنة، فإن شئتَ تركناهم لك في الجنة، وإن شئتَ آتيناكهم في الدنيا. قال مجاهد: فتركهم الله عزَّ وجلَّ له في الجنة وأعطاه مثلَهم في الدنيا. قال النحاس[2]: والإسنادُ عنهما بذلك صحيح.

قلت: وحكاه المهدويُّ عن ابن عباس.

وقال الضحاك: قال عبد الله بن مسعود: كان أهل أيوبَ قد ماتوا إلَّا امرأتَه، فأحياهم الله عزَّ وجلَّ في أقلَّ من طرف البصر، وآتاه مثلَهم معهم. وعن ابن عباس أيضاً: كان بنُوه قد ماتوا، فأُحيوا له وولد له مثلُهم معهم[3]. وقاله قتادة وكعب

---

(١) عرائس المجالس ص١٦٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٧٦ ، وما قبله منه، وقول مجاهد أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٣٦٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٦ - ٧٧ ، وأخرج الطبري ١٦/ ٣٦٦ خبر ابن عباس بنحوه، وخبر ابن مسعود مختصراً، وأخرجه أيضاً عن ابن مسعود الطبراني في الكبير (٩٠٨٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٧ : إسناده منقطع. وقال الحافظ في التهذيب ٢/ ٢٢٦ ، عن الضحاك: وقيل: لم يثبت له سماع من أحد من الصحابة.

الأحبار والكلبيُّ وغيرهم. قال ابن مسعود: مات أولاده، وهم سبعةٌ من الذكور، وسبعةٌ من الإناث، فلمَّا عوفي نُشروا له، وولدتْ امرأته سبعةَ بنينَ وسبعَ بنات[١]. الثعلبيّ[٢]: وهذا القول أشبهُ بظاهر الآية.

قلت: لأنهم ماتوا ابتلاءً قبل آجالهم، حسب ما تقدَّم بيانُه في سورة البقرة، في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموت، وفي قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أُحيوا[٣]، وذلك أنَّهم ماتوا قبل آجالهم، وكذلك هنا، والله أعلم.

وعلى قول مجاهد وعكرمةَ يكون المعنى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ في الآخرة ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا.

وفي الخبر: إنَّ الله بعث إليه جبريل عليه السلام حتى[٤] ركض برجله على الأرض ركضة[٥] فظهرت عينُ ماء حارّ، وأخذ بيده ونَفَضَه نفضةً فتناثرت عنه الديدان، وغَاص في الماء غوصةً فنبت لحمه، وعاد إلى منزله، وردَّ الله عليه أهلَه ومثلَهم معهم، ونشأت سحابةٌ على قَدْرِ قواعد داره، فأمطرت ثلاثةَ أيام بلياليها جراداً من ذهب. فقال له جبريل: أَشَبِعْتَ؟ فقال: ومَن يشبعُ من فضل الله؟ فأوحى الله إليه: قد أثنيتُ عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء وبعده، ولولا أنِّي وضعتُ تحت كلِّ شعرةٍ منكَ صَبْراً ما صبرت[٦].

---

(١) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٧٦ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٤ عن الفراء، وينظر التعليق السابق.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٢٦ .

(٣) ليس في ذلك نص صحيح، وينظر ٢/ ١١٥ و ٤/ ٢٠٩ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): حين.

(٥) قوله: ركضة، ليس في (ظ).

(٦) نقل الشيخ أبو شهبة رحمه الله في «الإسرائيليات» ص٢٨١ عن أبي بكر ابن العربي قوله: لم يصحَّ عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين: الأولى في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ =

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فَعَلْنا ذلك به رحمةً من عندنا. وقيل: ابتليناه ليعظُم ثوابُه غداً. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: وتذكيراً للعباد؛ لأنَّهم إذا ذكروا بلاءَ أيوب، وصبرَه عليه، ومحنته[1] له، وهو أفضلُ أهلِ زمانه، وطَّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نَحْوَ ما فَعَلَ أيوب، فيكونُ هذا تنبيهاً لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضَّرر.

واختلف في مدة إقامته في البلاء؛ فقال ابن عباس: كانت مدَّةُ البلاء سبعَ سنين وسبعةَ أشهرٍ وسبعةَ أيامٍ وسبعَ ليال[2]. وهب: ثلاثين سنة[3]. الحسن: سبع سنين وستةَ أشهر[4].

قلت: وأصحُّ من هذا والله أعلم: ثماني عَشْرةَ سنةً؛ رواه ابن شهاب عن النبيِّ ﷺ، ذكره ابن المبارك وقد تقدّم[5].

**قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ﴾ وهو أخنوخ وقد تقدَّم[6] ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي:

---

= أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ والثانية: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. وأما النبي ﷺ؛ فلم يصحَّ عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينما أيوب يغتسل؛ إذ خرَّ عليه رِجْل من جراد من ذهب.. الحديث. اهـ. وهو في صحيح البخاري (٣٣٩١)، وتتمته: فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا ربِّ، ولكن لا غنى لي عن بركتك». قال: وإذا لم يصحَّ فيه قرآن، ولا سنة إلا ما ذكرنا، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره؟ أم على أيِّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمَّ عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً.

(١) في (د) و(ز): ومحبته.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ٢٦١ عن كعب، دون قوله: وسبع ليال.

(٣) كذا في النسخ، والذي أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥٤ عن وهب أنه قال: لبث في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوماً واحداً، وكذا ذكره الثعلبي في العرائس ص١٦٤ ، والبغوي ٣/ ٢٦١ .

(٤) سلف ص٢٥٧ من هذا الجزء .

(٥) ص٢٦٠ من هذا الجزء، وينظر فتح الباري ٦/ ٤٢١-٤٢٣ .

(٦) ١٣/ ٤٦٦ .

واذكرهم. وخرَّج الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[١] وغيره من حديث ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجلٌ يقال له: ذو الكفل، لا يتورَّع من ذنبٍ عَمِلَه، فاتَّبع امرأة، فأعطاها ستِّين ديناراً [على أن يطأها]. فلمَّا قعد منها مَقْعَدَ الرجل من امرأته ارتعدتْ وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: من هذا العمل، واللهِ ما عملته قط، قال: أَكْرهتُك؟ قالت: لا، ولكن حملني عليه الحاجةُ، قال: اذهبي فهو لك، والله لا أعصي الله بعدها أبداً. ثم مات من ليلته، فوجدوا مكتوباً على باب داره: إنَّ الله قد غفر لذي الكفل».

وخرجه أبو عيسى الترمذيُّ أيضاً؛ ولَفْظُه: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيَّ ﷺ يحدِّث حديثاً لو لم أسمعه إلَّا مرةً أو مرتين ـ حتى عدَّ سبعَ مرَّاتٍ ـ ولكنِّي سمعته أكثر من ذلك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفل[٢] من بني إسرائيل لا يتورَّع من ذنبٍ عَمِلَه، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستِّين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعدَ الرجل من امرأته ارتعدتْ وبكت، فقال: ما يبكيكِ، أأكرهتُكِ؟ قالت: لا، ولكنه عملٌ ما عملتُه قطُّ، وما حملني عليه إلا الحاجةُ. فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فعلتِه! اذهبي فهي لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: إنَّ الله قد غفر للكِفْل»[٣] قال: حديث حسن[٤].

وقيل: إنَّ اليسع لمَّا كبر قال: لو استخلفتُ رجلاً على الناس حتى أَنظرَ كيف يعمل. فقال: مَن يتكفَّل لي بثلاث: بصيام النهار، وقيامِ الليل، وألَّا يغضب وهو يقضي؟ فقال رجل من ذرِّية العيص: أنا، فردَّه، ثم قال مثلَها من الغد، فقال الرجل:

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) في النسخ: ذو الكفل، والمثبت من سنن الترمذي.

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): لذي الكفل، والمثبت من (د) و(ز) وسنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٢٤٩٦)، وهو عند أحمد (٤٧٤٧)، وما بين حاصرتين منهما. قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٥١٩ : حديث غريب جداً، وفي إسناده نظر... وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل، وإنما لفظ الحديث: الكفل، فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن.

أنا، فاستخلفه فوفَّى، فأثنى الله عليه فسمِّي ذا الكفل؛ لأنه تكفَّل بأمر [فوفَّى به]؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة[١]. وقاله[٢] عبد الله بن الحارث[٣].

وقال أبو موسى عن النبيِّ ﷺ: إنَّ ذا الكفل لم يكن نبيًّا، ولكنه كان عبداً صالحاً، فتكفَّل بعملِ رجلٍ صالحٍ عند موته، وكان يصلِّي لله كلَّ يومٍ مئةَ صلاة، فأحسنَ الله الثناءَ عليه[٤].

وقال كعب: كان في بني إسرائيل ملكٌ كافر، فمرّ ببلاده رجلٌ صالح فقال: والله إن خرجتُ من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام. فعرض عليه، فقال: ما جزائي؟ قال: الجنة ـ ووصفها له ـ قال: مَن يتكفَّل لي بذلك؟ قال: أنا، فأسلم الملك وتخلَّى عن المملكة، وأقبل على طاعة ربِّه حتى مات، فدُفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجةً من القبر وفيها رقعةٌ خضراء مكتوبٌ فيها بنورٍ أبيضَ: إنَّ الله قد غفر لي وأدخلني الجنة ووفَى بكفالة[٥] فلان. فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، و يتكفَّلَ لهم بما تكفَّل به للملك، ففعل ذلك فآمنوا كلُّهم، فسمِّي ذا الكفل.

وقيل: كان رجلاً عفيفاً يتكفَّل بشأن كلِّ إنسانٍ وقع في بلاءٍ أو تهمةٍ أو مطالبةٍ، فينجِّيه الله على يديه.

وقيل: سمِّي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفَّلَ له في سعيه وعمله بضِعْفِ عمل[٦] غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه.

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٣٦٩ - ٣٧٣ ، وخبر مجاهد فيه مطوَّل، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وقال.

(٣) في النسخ: عمرو بن عبد الله بن الحارث، وهو خطأ، فقد أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٨ من طريق المنهال ابن عمرو عن عبد الله بن الحارث.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٧ ، والطبري ١٦/ ٣٧٢ من طريق قتادة عن أبي موسى ﷺ موقوفاً. وهو منقطع، وأخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في البداية والنهاية ١/ ٥١٨ ـ من طريق قتادة، عن كنانة بن الأخنس، عن أبي موسى موقوفاً أيضاً.

(٥) في (خ) و(د) و(ز): كفالة، وفي (م): عن كفالة، والمثبت من (ظ).

(٦) في (د) و(ز): على.

والجمهورُ على أنه ليس بنبيٍّ. وقال الحسن: هو نبيٌّ قبل إلياس[١]. وقيل: هو زكريا بكفالة[٢] مريم. ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على أمر الله، والقيامِ بطاعته، واجتنابِ معاصيه. ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي: في الجنة ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: واذكر ذا النُّون، وهو لقبٌ ليونس بن متَّى لقِّب به[٣] لابتلاع النون إياه. والنونُ: الحوت. وفي حديث عثمان ﷺ: أنه رأى صبيًّا مَليحاً فقال: دَسِّموا نُونَته كي لا تصيبَه العين[٤]. روى ثعلب عن ابن الأعرابيِّ: النّونةُ: النقبة[٥] التي تكون في ذقن الصبيِّ الصغير، ومعنى دسِّموا: سَوِّدوا.

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ قال الحسن والشعبيُّ وسعيد بن جبير: مغاضباً لربِّه عزَّ وجلَّ. واختاره الطبريُّ[٦] والقُتَبيُّ[٧] واستحسنه المهدويُّ، وروي عن ابن مسعود. قال النحاس: وربَّما أنكر هذا مَن لا يعرف اللغةَ، وهو قولٌ صحيح. والمعنى: مغاضباً من أجل ربِّه، كما تقول: غضبتُ لك، أي: من أجلك. والمؤمنُ يغضب لله عزَّ وجلَّ إذا عُصي. وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أنَّ قول النبيِّ ﷺ لعائشة: «اشترطي لهم الولاءَ» من هذا[٨].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٤ .

(٢) في (ظ): تكفل، وذكر هذا القول الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٦٤ ، والبغوي ٣/ ٢٦٥ دون نسبة.

(٣) قوله: لقب به، من (ظ).

(٤) ذكره الخطابي في غريب الحديث ٢/ ١٣٩ ، والزمخشري في الفائق ١/ ٤٢٤ ، وابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٣٣٧ ، وابن الأثير في النهاية (دسم) و(نون).

(٥) وقع في شرح هذه الكلمة في المصادر السابقة: النقرة، بدل: النقبة.

(٦) في التفسير ١٦/ ٣٧٧ ، وأخرج قول الحسن والشعبي وسعيد بن جبير ١٦/ ٣٧٦ - ٣٧٨ .

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص٣١٤ - ٣١٥ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٧ ، والحديث سلف ٣/ ٣١٨ .

وبالغ القُتَبيُّ في نصرة هذا القول، وفي الخبر في وصف يونس: إنَّه كان ضيِّق الصدر، فلمَّا حُمِّل أعباء النبوَّة تَفسَّخ تحتها تفسُّخ الرُّبَع تحت الحمل الثقيل، فمضَى على وجهه مُضيَّ الآبِقِ النادّ[١].

وهذه المغاضبةُ كانت صغيرة، ولم يغضب على الله، ولكن غضب لله؛ إذ رَفَع العذاب عنهم. قال ابن مسعود: أبق من ربِّه، أي: من أمرِ ربِّه، حين[٢] أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم. فإنه كان تَوَعَّد[٣] قومَه بنزول العذاب في وقتٍ معلوم، وخرج من عندهم في ذلك الوقت، فأظلَّهم العذاب، فتضرَّعوا، فرُفع عنهم، ولم يعلم يونس بتوبتهم؛ فلذلك ذهب مغاضباً، وكان من حقِّه ألَّا يذهبَ إلَّا بإذنٍ محدَّد[٤].

وقال الحسن: أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه، فسأل أن يُنظَر ليتأهَّب، فأعْجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلاً ليلبسها فلم يُنظَر، وقيل له: الأمر أَعْجَلُ من ذلك، وكان في خُلُقه ضِيقٌ، فخرج مغاضباً لربِّه[٥]. فهذا قولٌ، وقول النحاس أحسنُ ما قيل في تأويله. أي: خرج مغاضباً من أَجْلِ ربِّه، أي: غضب على قومه من أجل كفرهم بربِّه.

وقيل: إنه غاضَبَ قومَه حين طال عليه أمرهم وتعنُّتهم، فذهب فارًّا بنفسه ولم يصبر على أذاهم، وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجَه من بينهم من غير إذنٍ من الله. روي معناه عن ابن عباس والضحَّاك، وأنَّ يونس كان شابًّا ولم يحمل أثقال النبوَّة؛ ولهذا قيل للنبيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨][٦].

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص٣١٦ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٦ عن وهب بن منبه. والرُّبَع: الفصيل الذي ينتج في الربيع، و تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل: إذا لم يُطِقْه. اللسان (ربع). و(فسخ).

(٢) في (ز) و(م): حتى.

(٣) في النسخ عدا (د): يتوعد، والمثبت من (د).

(٤) ذكره مطولاً البغوي ٢/ ٣٦٩ عن ابن مسعود وسعيد بن جبير ووهب بن منبه، وأخرجه بنحوه عن ابن مسعود ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢ .

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٧ .

(٦) المحْرر الوجيز ٤/ ٩٦ ، وأخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٦/ ٣٧٤ مختصراً.

وعن الضحاك أيضاً: خرج مغاضباً لقومه؛ لأنَّ قومه لمَّا لم يقبلوا منه وهو رسولٌ من الله عزَّ وجلَّ، كفروا بهذا، فوجَبَ أن يغاضبهم، وعلى كلِّ أحدٍ أن يغاضب مَن عصى الله عزَّ وجلَّ.

وقالت فرقةٌ منهم الأخفش[١]: إنَّما خرج مغاضباً للملك الذي كان على قومه؛ قال ابن عباس: أراد شعيا النبيُّ والملكُ الذي كان في وقته ـ اسمُه حزقيا[٢] ـ أن يبعثا يونسَ إلى ملك نينوى ـ وكان غزا بني إسرائيلَ وسبَى الكثير منهم ـ ليكلِّمه حتى يرسل معه بني إسرائيل، وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحَى إليهم، والأمرُ والسياسةُ إلى ملكٍ قد اختاروه، فيعملُ على وَحْيِ ذلك النبيِّ، وكان أوحى الله إلى شعيا: أنْ قل لحزقيا[٣] الملكِ أن يختار نبيًّا قويًّا أميناً من بني إسرائيل، فيبعثه إلى أهل نِينوى، فيأمرهم بالتخلية عن بني إسرائيل، فإنِّي ملقٍ في قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخليةَ عنهم. فقال يونس لشعيا: هل أَمَرك الله بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سمَّاني لك؟ قال: لا. قال: فها هنا أنبياءُ أمناءُ أقوياء! فألَحُّوا عليه، فخرج مغاضباً للنبيِّ والملكِ وقومه، فأتى بحر الروم، وكان من قصته ما كان[٤]. فابتُلي ببطن الحوت لتَرْكه أمر شعيا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ والمُليم: مَن فَعَل ما يُلام عليه. وكان ما فَعَله إمَّا صغيرةً، أو تَرْكَ الأَوْلى.

وقيل: خرج ولم يكن نبيًّا في ذلك الوقت، ولكنْ أَمَره ملكٌ من ملوك بني إسرائيل أن يأتي نِينوى ليدعوَ أهلها بأمر شعيا، فأَنِفَ أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحدٍ غيرِ الله، فخرج مغاضباً للملك، فلما نجا من بطن الحوت بَعَثه الله إلى قومه، فدعاهم وآمنوا به.

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): حزقيل.

(٣) في د) و(ز) و(ظ): لحزقيل.

(٤) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٤١٠.

وقال القشيريُّ: والأظهَرُ أنَّ هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلَّهم؛ فإنه كره رَفْعَ العذاب عنهم.

قلت: هذا أحسنُ ما قيل فيه، على ما يأتي بيانُه في «والصافات»[١] إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنه كان من أخلاق قومه قتلُ مَن جرَّبوا عليه الكذبَ، فخشيَ أن يُقتَل، فغضب وخرج فارًّا على وجهه حتى ركب في سفينة[٢]، فسكنت ولم تَجْر، فقال أهلها: أفيكم آبِقٌ؟ فقال: أنا هو. وكان من قصَّته ما كان، فابتُلي ببطن الحوت تمحيصاً من الصغيرة كما قال في أهل أُحدٍ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٣] [آل عمران: ١٥٢-١٥٤]. فمعاصي الأنبياءِ مغفورةٌ، ولكنْ قد يجري تمحيصٌ، ويتضمَّنُ ذلك زجراً عن المعاودة.

وقول رابع: أنَّه لم يغاضب ربَّه، ولا قومه، ولا الملك، وأنه من قولهم: غضب: إذا أَنِفَ. وفَاعَلَ قد يكون من واحد، فالمعنى: أنه لمَّا وَعَدَ قومه بالعذاب وخرج عنهم، تابوا وكُشفَ عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أَنِفَ من ذلك، فخرج آبقاً[٤]، وينشد هذا البيت:

وأغضب أن تُهجى تميمٌ بدارِمِ[٥]

---

(١) عند تفسير الآية (١٣٩).

(٢) النكت والعيون ٣/٤٦٦ ، والمحرر الوجيز ٤/٩٧ . وقال ابن عطية: وفي هذا القول من الضعف ما لا خفاء به، مما لا يتصف به نبي.

(٣) في النسخ: وليمحص الله الذين آمنوا، وهي الآية (١٤١) من «آل عمران».

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣١٤ - ٣١٥ ، وقال ابن قتيبة: خشي أن ينسب إلى الكذب ويُعيَّر به، لا سيما ولم تكن قرية آمنت عند حضور العذاب فنفعها إيمانها غير قومه، فدخلته الأنفة والحميَّة.

(٥) تأويل مشكل القرآن ص٣١٥ وفيه: وأعبد، بدل: وأغضب، والبيت للفرزدق، كما في إصلاح المنطق ص٥٩ ، والصحاح (عبد)، والحلل للبطليَوْسي ص١٤٢ ، وهو عندهم برواية:

أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم وأَعْبَدُ أن أهجو كليباً بدارمِ =

أي: آنفُ. وهذا فيه نظر؛ فإنه يقال لصاحب هذا القول: إنَّ تلك المغاضبةَ وإن كانت من الأنَفة، فالأنَفةُ لابدَّ أن يخالطها الغضب وإن دقَّ[١]، وأنت تقول: لم يغضب على ربِّه ولا على قومه، فذلك الغضبُ الذي يخالطُ الأنفةَ؛ على مَن كان؟![٢].

قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قيل: معناه: استزلَّه إبليس، ووقع في ظنِّه إمكانُ ألَّا يقدِرَ الله عليه بمعاقبته[٣]. وهذا قولٌ مردودٌ مرغوبٌ عنه؛ لأنه كفر. روي عن سعيد بن جبير، حكاه عنه المهدوي، والثعلبيُّ عن الحسن[٤].

وذكر الثعلبيُّ: وقال عطاء[٥] وكثيرٌ من العلماء: معناه: فظنَّ أنْ لن نضيِّق عليه الحبسَ[٦]، من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] أي: يضيِّق، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧].

قلت: وهذا الأشبهُ بقول سعيد والحسن. وقَدَر وقُدِرَ وقَتَر وقُتِر بمعنى، أي: ضيّق، وهو قولُ ابن عباس فيما ذكره الماورديّ[٧] والمهدويّ.

---

= ووقع في الحلل: آبائي، بدل: أحلاسي. وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٣٨، والعسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٥١٢ برواية:

أولئك قوم إن هجوني هجوتهم ... وأغْبَدُ.....

ولم نقف عليه برواية: وأغضب. قال ابن قتيبة: العَبَد أصله: الغضب، ثم قد تسمَّى الأنفة عَبَداً.

(١) بعدها في النسخ: على من كان، ولا معنى لها هنا، وسترد في موضعها، ووقع بعد قوله: يخالطها الغضب في (م): وذلك الغضب.

(٢) قوله: فذلك الغضب الذي يخالط الأنفة على من كان، ليس في (م).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧.

(٤) عرائس المجالس ص٤١٢، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٠.

(٥) بعدها في النسخ عدا (ظ): وسعيد بن جبير، والمثبت من (ظ)، وعرائس المجالس ص٤١٢، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٦.

(٦) وقع في النسخ: قال الحسن، وهو تحريف، والمثبت من عرائس المجالس وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٦، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٧، والوسيط ٣/ ٢٤٩.

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٦.

وقيل: هو من القَدَر الذي هو القضاء والحكم، أي: فظنَّ أنْ لن نقضيَ عليه العقوبةَ؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ والفرَّاء[١]. مأخوذٌ من القَدَر، وهو الحكمُ، دون القدرة والاستطاعة. ورويَ عن أبي العباس أحمدَ بنِ يحيى ثعلب أنه قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: هو من التقدير؛ ليس من القدرة، يقال منه: قدَر الله لك الخير يَقْدِرُه قَدْراً، بمعنى: قدَّر الله لك الخير، وأنشد ثعلب:

فليست عشيّاتُ اللِّوى[٢] برواجعٍ لنا أبداً ما أبرمَ[٣] السَّلَمَ النَّضْرُ

ولا عائداً[٤] ذاك الزمان الذي مضى تبارَكْتَ ما تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ

يعني: ما تقدِّره وتقضي به يقع[٥]. وعلى هذين التأويلين العلماء.

وقرأ عمر بن عبد العزيز والزُّهريُّ: «فظَنَّ أنْ لن نُقَدِّرَ عليه» بضمِّ النون وتشديد الدال[٦] من التقدير. وحكى هذه القراءة الماورديُّ عن ابن عباس[٧].

وقرأ عبيد بن عمير وقتادةُ والأعرج: «أنْ لن يُقَدَّرَ عليه» بضم الياء مشدَّداً على الفعل المجهول[٨].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٩ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وأخرج قول مجاهد وقتادة الطبري ١٦/ ٣٧٩ ، وذكره عنهما البغوي ٣/ ٢٦٦ .

(٢) في المصادر الآتية: الحمى.

(٣) في (د) و(ز) و(م): أورق، وكذا وردت في بعض المصادر على ما يأتي.

(٤) في (ظ) و(م): عائد، والمثبت من باقي النسخ والتمهيد ١٨/ ٤٤ ، والكلام منه.

(٥) التمهيد ١٨/ ٤٤ ، وورد كلام ثعلب أيضاً ولكن دون الشعر في ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٦٣-٣٦٤ . والبيتان من قصيدة لأبي صخر الهذلي كما ذكر ابن عبد البر، وذكرهما القالي في أماليه ١/ ١٥٠ دون نسبة، وذكر البيت الأول أبو الفرج في الأغاني ٢٤/ ١٢٤ عن أبي صخر برواية: أورق السلم.

قال ابن عبد البر: السلم، شجر من العضاه يدبغ به، والنضر: النضارة والتنعم، وأبرم السلم: أخرج برمته. اهـ. والبرمة ثمر السلم، والعضاه: كلُّ ذات شوك. معجم متن اللغة (برم) و(عضه).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٦٦ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٢١٥ ، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وأبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ عن الزهري وحده.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ .

(٨) ذكرها الرازي في التفسير ٢٢/ ٢١٥ عن عبيد بن عمير وحده، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٨١ دون نسبة.

وقرأ يعقوبُ وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن وابن عباس أيضاً: «يُقْدَرَ عليه» بياء مضمومة وفتحِ الدَّال مخفَّفاً على الفعل المجهول[١].

وعن الحسن أيضاً: «فظَنَّ أن لن يَقْدِرَ عليه»[٢]. الباقون «نَقْدِرَ» بفتح النون وكسر الدال، وكلُّه بمعنى التقدير.

قلت: وهذان التأويلان تَأوَّلهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قطُّ لأهله: «إذا مات فحرِّقوه، فوالله لئن قَدَر الله عليَّ» الحديث. فعلى التأويل الأوّل يكون تقديره: والله لئن ضيَّق الله عليَّ وبالَغ في محاسبتي وجزائي[٣] على ذنوبي ليكوننَّ ذلك، ثم أمر أن يُحرق [بعد موته من] إفراط[٤] خوفه.

وعلى التأويل الثاني: أي: لئن كان سَبَقَ في قدر الله وقضائه أن يعذِّب كلَّ ذي جُرْمٍ على جرمه، ليعذِّبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذِّبه أحداً من العالمين غيري.

وحديثه خرَّجه الأئمة في «الموطأ» وغيره[٥]. والرجلُ كان مؤمناً موحِّداً، وقد جاء في بعض طرقه: «لم يعمل خيراً قطُّ إلا التوحيد»[٦] وقد قال حين قال الله تعالى له: «لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب» والخشيةُ لا تكون إلا لمؤمنٍ مصدِّقٍ

---

(١) النشر ٢/ ٣٢٤ عن يعقوب، وذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ عن ابن أبي ليلى وأبي شرف والكلبي ويعقوب.

(٢) ذكرها عن الحسن النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وأبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ .

(٣) في (ز): وجزاني، والمثبت من باقي النسخ والتمهيد ١٨/ ٤٣ والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه. ووقع في الاستذكار ٨/ ٣٦٩ : وجازاني.

(٤) في النسخ: بإفراط، والمثبت من التمهيد.

(٥) الموطأ ١/ ٢٤٠ ، وصحيح البخاري (٣٤٨١) و(٧٥٠٦)، وصحيح مسلم (٥٧٥٦)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه بهذه الرواية أحمد (٨٠٤٠).

[بل ما تكاد تكون إلا لمؤمن عالم] قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨][(١)].

وقد قيل: إنَّ معنى «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» الاستفهام، وتقديره: أفظنَّ، فحذف ألف الاستفهام إيجازاً، وهو قول سليمان أبي المعتمر[(٢)]. وحكى القاضي منذر بنُ سعيد: أنَّ بعضهم قرأ: «أفظنَّ» بالألف[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

**الأولى:** قوله تعالى: «فنادى في الظُّلُمات» اختلف العلماء في جمع الظلمات؛ ما المراد به؟ فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة: ظلمةُ الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت[(٤)]. وذكر ابن أبي الدنيا: حدَّثنا يوسف بن موسى، حدَّثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: حدَّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال: لمَّا ابتلع الحوتُ يونسَ عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونسُ تسبيح الحصى، فنادى في الظلمات، ظلماتٍ ثلاث: بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش[(٥)].

---

(١) التمهيد ١٨/ ٤٠ ، والاستذكار ٨/ ٣٦٥ - ٣٦٦ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وفيه: سليمان بن المعتمر، ونقله عنه المصنف، وهو خطأ، وهو سليمان بن طَرخان التيمي والد المعتمر بن سليمان، وذكر قوله أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٨٣ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨١ عن ابن زيد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وأخرجه عن ابن عباس وقتادة وغيرهما الطبري ١٦/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٥) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا (٣٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢ عن عبيد الله بن موسى بالإسناد المذكور مطولاً.

وقالت فرقةٌ منهم سالم بن أبي الجعد: ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأوّل. ويصحُّ أن يعبَّر بالظلمات عن جوف الحوت الأوّل فقط، كما قال: ﴿في غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] وفي كلٍّ جهاته ظلمةٌ، فجمعُها سائغ[١].

وذكر الماوَرْديّ[٢]: أنه يحتمل أن يعبَّر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدّة، وظلمة الوحدة.

وروي: أنَّ الله تعالى أوحى إلى الحوت: لا تؤذِ منه شعرةً، فإنِّي جعلت بطنك سجنه، ولم أجعله طعامك. وروي: أنَّ يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر[٣].

وذكر ابن أبي الدنيا: حدَّثنا العباس بن يزيد العبدي، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا جعفر بن سليمان، عن عوفٍ، عن سعيد بن أبي الحسن قال: لمَّا التقم الحوت يونس عليه السلام ظنَّ أنه قد مات، فطول رجليه فإذا هو لم يمت، فقام إلى عادته[٤] يصلِّي، فقال في دعائه: واتَّخذتُ لك مسجداً حيث لم يتَّخذْه أحد[٥].

قال أبو المعالي: قوله ﷺ «لا تفضِّلوني على يونسَ بنِ متى»[٦] المعنى: فإنِّي لم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وأخرج قول سالم بن أبي الجعد الطبريُّ ١٦/ ٣٨٣ . والقراءة المذكورة من سورة يوسف هي قراءة نافع وأبي جعفر، وقد سلفت ١١/ ٢٦٢ .

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وهذا الخبر والذي قبله ورد نحوهما في حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه البزار (٢٢٥٤ - كشف) والطبري ١٦/ ٣٨٤ - ٣٨٥ . وسيرد هذا الحديث بتمامه عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الصافات.

(٤) في (ظ): عبادته.

(٥) الفرج بعد الشدة (٣٦)، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٨٥ من طريق سنيد بن داود، عن جعفر بن سليمان، عن عوف الأعرابي، عن الحسن وفيه: ...فحرك رجليه فإذا هي تتحرك فسجد وقال...، وسعيد بن أبي الحسن هو أخو الحسن البصري، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٤ من طريق آخر عن جعفر بن سليمان عن عوف الأعرابي قوله.

(٦) ذكره بهذا اللفظ ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص١١٦ ، وأخرجه أحمد (٢١٦٧)، والبخاري (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «لا يقل أحدٌ أنا خير من يونس ابن متّى» وسلف ٤/ ٢٥٤ .

أكن وأنا في سدرة المنتهى بأقربَ إلى الله منه وهو في قعر البحر في بطن الحوت. وهذا يدلُّ على أنَّ الباريَ سبحانه وتعالى ليس في جهة[١]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة» و«الأعراف»[٢].

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبرِ عليهم.

وقيل: في الخروج من غير أن يؤذَن له. ولم يكن ذلك من الله عقوبة؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، وإنما كان ذلك تمحيصاً. وقد يؤدَّب مَن لا يستحقُّ العقابَ كالصبيان؛ ذكره الماوردي[٣].

وقيل: من الظالمين في دعائي على قومي بالعذاب. وقد دعا نوحٌ على قومه فلم يؤاخَذ. وقال الواسطيُّ[٤] في معناه: نزَّه ربَّه عن الظلم؛ وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً. ومثلُ هذا قولُ آدمَ وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ إذ كانا السَّبَبَ في وضعهما أنفسَهما في غير الموضع الذي أُنزلا فيه.

**الثانية**: روى أبو داود، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبيِّ ﷺ قال: «دعاء ذي النونِ في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يَدْعُ به رجلٌ مسلم في شيءٍ قطُّ إلَّا استُجيبَ له»[٥].

وقد قيل: إنه اسم الله الأعظم. ورواه سعدٌ عن النبيِّ ﷺ[٦]. وفي الخبر: في هذه

---

(١) ذكر قول أبي المعالي مطولاً ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩ ، وسيرد بتمامه عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الصافات.

(٢) ١/ ٣٨٠ و ٩/ ٢٣٨ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٧ ، ووقع فيه: تأديباً، بدل: تمحيصاً.

(٤) هو أبو بكر محمد بن موسى، وقوله مع ما سبقه ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٧١ .

(٥) لم نقف عليه في سنن أبي داود، ولم ينسبه له المزي في التحفة، وهو في سنن الترمذي (٣٥٠٥)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٤١٧)، وأخرجه أحمد مطولاً (١٤٦٢).

(٦) أخرجه الحاكم ١/ ٥٠٥ - ٥٠٦ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٦ بلفظ: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متَّى» ولم يقل فيه: الأعظم، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧١٤) عن الحسن قوله.

الآية شَرَطَ الله لمن دعاه أن يجيبَه كما أجابه، وينجيَه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وليس هاهنا صريحُ دعاءٍ، وإنَّما هو مضمونُ قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاعترف بالظلم؛ فكان تلويحاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نخلِّصُهم من همِّهم بما سَبَقَ من عملهم، وذلك قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. وهذا حِفْظٌ من الله عزَّ وجلَّ لعبده يونس؛ رعى له حقَّ تعبُّده، وحَفِظَ زِمامَ ما سلف له من الطاعة.

قال الأستاذ أبو إسحاق: صَحِب ذو النون الحوتَ أياماً قلائلَ، فإلى يوم القيامة يقال له: ذو النون، فما ظنُّك بعبدٍ عَبَدَه سبعين سنة، يبطل هذا عنده؟! لا يُظنُّ به ذلك[2]. «مِن الْغَمِّ» أي: من بطن الحوت.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قراءةُ العامَّة بنونين؛ من أَنْجَى يُنْجِي. وقرأ ابن عامر: «نُجِّي» بنونٍ واحدة وجيمٍ مشدَّدةٍ وتسكينِ الياء[3] على الفعل الماضي وإضمارِ المصدر، أي: وكذلك نُجِّي النجاءُ المؤمنين، كما تقول: ضُرِب زيداً، بمعنى: ضُرِب الضربُ زيداً، وأنشد:

ولو وَلَدتْ قُفَيْرةُ جَرْوَ كَلْبٍ ... لَسُبَّ بذلك الجروِ الكِلَابَا[4]

---

(١) ورد ضمن حديث سعد ﷺ عند الطبري ١٦/ ٣٨٦ المذكور في التعليق السابق.

(٢) ورد هذا الكلام في لطائف الإشارات ٢/ ٥١٩ للأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، وهو تلميذ الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني.

(٣) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية شعبة، كما في التيسير ص١٥٥ .

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٩ - ٤٠ ، والبيت لجرير كما في رسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني ص٥٣ ، والخزانة ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وهو بلا نسبة في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٤ ، والخصائص ١/ ٣٩٧ ، وشرح المفصل ٧/ ٧٥ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥١٨ . قال البغدادي: قُفَيْرة اسم أم الفرزدق، والمعنى: أنها لو ولدت جرواً لسُبَّتْ جميع الكلاب بسبب ذلك الجرو. ولم يرد البيت في ديوان جرير.

أراد: لَسُبَّ السَّبُّ بذلك الجرو. وسكنت ياؤه على لغة مَن يقول: بَقِيْ ورَضِيْ فلا يحرِّك الياء. وقرأ الحسن: «وَذَرُوا مَا بَقيْ مِنَ الرِّبَا»[١] استثقالاً لتحريك ياءٍ قبلَها كسرة. وأنشد:

خَمَّرَ الشَّيبُ لِمَّتي تَخْمِيراً وَحَدَا بي إلى القُبور البَعِيرا

ليتَ شِعْري إذا القيامةُ قامتْ ودُعيْ بالحسابِ أين المصيرا[٢]

سكَّن الياء في دُعيْ استثقالاً لتحريكها وقَبْلَها كسرةٌ، وفاعلُ حدا: الشيب[٣]، أي: وحدا الشيبُ البعير. ليت شعري المصيرَ أين هو[٤].

هذا تأويلُ الفرَّاء[٥] وأبي عبيد وثعلب في تصويب هذه القراءة. وخطَّأها أبو حاتم والزجَّاج[٦] وقالا: هو لحنٌ؛ لأنه نَصَبَ اسمَ ما لم يسمَّ فاعلُه، وإنَّما يقال: نُجِّيَ المؤمنون. كما يقال: كُرِّمَ الصالحون. ولا يجوز: ضُرِب زيداً، بمعنى: ضُرِب الضَّربُ زيداً؛ لأنه لا فائدةَ [فيه]؛ إذ[٧] كان ضُرِب يدلُّ على الضرب. ولا يجوز أن يُحتجَّ بمثل ذلك البيت على كتاب الله تعالى.

ولأبي عبيد قولٌ آخَرُ ـ وقاله القتَبيُّ ـ وهو أنه أَدْغَم النون في الجيم. النحاس[٨]:

---

(١) المحتسب ١/ ١٤١ .

(٢) الإفصاح للفارقي ص١٨١ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٦ ، والبيت الثاني في كتاب الشعر لأبي علي الفارسي ١/ ٣١٤ ، ووقع في الأمالي والشعر: ودعا، بدل: ودُعي. وفي الإفصاح: لحيتي، بدل: لمتي. قال ابن الشجري: قوله: خمر الشيب لمتي، معناه: غطَّى سوادها، وعنى بالبعير عمره.

(٣) في (د) و(خ) و(م): المشيب، في الموضعين، والمثبت من (ز) و(ظ) والإفصاح.

(٤) قال الفارقي: نصب «المصير» بمعنى قوله: ليت شعري؛ لأن معناه: ليتني أشعر. وقال ابن الشجري: «أين» خبر مبتدأ محذوف، تقديره: أين هو، وقد أساء بشيئين؛ بحذف المبتدأ، وبالفصل بين شعري ومعموله بأين، وهو أجنبي، ولو أُعطيَ الكلام حقَّه قيل: ليت شعري، المصيرَ أين هو؟

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢١٠ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٣ .

(٧) في (ظ): إذا، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٨ ، والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٧٨ ، وما قبله منه، عدا قوله: وقاله القتبي. وذكر قول القتبي البغوي ٣/ ٢٦٧ .

وهذا القولُ لا يجوز عند أحدٍ من النَّحْويين؛ لبُعْدِ مخرج النون من مخرج الجيم فلا تُدغَم فيها، ولا يجوز في ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ [القصص: ٨٤]: مَجَّاءَ بِالْحَسَنَةِ. قال النحاس: ولم أسمع في هذا أحسن من شيءٍ سمعته من عليِّ بن سليمان؛ قال: الأصلُ: ننجي، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما، كما تُحذف إحدى التاءين لاجتماعهما؛ نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والأصل: تتفرقوا.

وقرأ محمد بن السَّمَيفع وأبو العالية: «وكَذَلِكَ نَجَّى المُؤْمِنِينَ»[١]، أي: نَجَّى الله المؤمنين، وهي حسنة.

**قوله تعالى:** ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أي: واذكر زكريا. وقد تقدَّم في «آل عمران» ذِكْرُه[٢]. ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أي: منفرداً لا ولدَ لي، وقد تقدَّم[٣]. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: خيرُ مَن يَبْقَى بعد كلِّ مَن يموت، وإنما قال: «خير الْوَارِثِينَ» لِمَا تقدَّم من قوله: ﴿يَرِثُنِى﴾ [مريم: ٦] أي: أعلمُ أنك لا تُضيع دِينَك، ولكنْ لا تقطعْ هذه الفضيلةَ التي هي القيامُ بأمر الدِّين عن عَقِبي. كما تقدَّم في «مريم» بيانُه[٤].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: أجبنا دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ تقدَّم ذكره مستوفى[٥]. ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين: إنها

---

(١) لم نقف على هذه القراءة عند غير المصنف.

(٢) ٥/ ١٠٧ . ٥/ ١١٥ وما بعدها.

(٣) ١٣/ ٥٠٩ .

(٤) ١٣/ ٤١٥ .

(٥) ٥/ ١١٥ وما بعدها.

كانت عاقراً فجُعلت وَلوداً[١]. وقال ابن عباس وعطاء: كانت سيئةَ الخُلُق، طويلةَ اللسان، فأصلحها الله فجعلها حسنةَ الخُلُق[٢].

قلت: ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين، فجُعِلَتْ حسنةَ الخُلُق ولوداً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني الأنبياء المسمَّيْنَ في هذه السورة ﴿كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾. وقيل: الكناية راجعةٌ إلى زكريَّا وامرأتِه ويحيى.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ **فيه مسألتان:**

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء وحالِ الشدة. وقيل: المعنى: يدعون وقتَ تعبُّدهم وهم بحالِ رغبةٍ ورجاءٍ، ورهبةٍ وخوف؛ لأنَّ الرَّغبة والرَّهبة متلازمان.

وقيل: الرَّغَب: رَفْعُ بطون الأَكُفِّ إلى السماء، والرَّهَبُ: رَفْعُ ظهورها؛ قاله خُصَيْف. قال ابن عطية[٣]: وتلخيصُ هذا أنَّ عادة كلِّ داعٍ من البشر أن يستعين بيديه، فالرَّغَبُ من حيث هو طلبٌ يَحْسُنُ منه أن يوجِّه باطنَ الراحِ نحو المطلوب منه؛ إذ هي موضع إعطاء، أو بها يتملَّك[٤]، والرَّهَبُ من حيث هو دَفْعُ مَضَرَّةٍ يَحْسُنُ معه طَرْحُ ذلك، والإشارةُ إلى ذهابه وتَوَقِّيه بنفض اليد ونحوه.

**الثانية**: روى الترمذيُّ[٥] عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يَحُطَّهما حتى يمسح بهما وجهه. وقد مضى في «الأعراف»[٦]

---

(١) أخرج قول قتادة وسعيد بن جبير الطبري ١٦/ ٣٨٨.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٨ عن عطاء وابن كامل، وذكره ابن الجوزي ٥/ ٣٨٤ عن عطاء والسدي ومحمد بن كعب. ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٩٨، وما قبله منه.

(٤) في (ظ): إذ بها يتملك، وفي المحرر الوجيز: الإعطاء وبها يتملك.

(٥) في سننه (٣٣٨٦)، وسلف ٩/ ٢٤٦.

(٦) ٩/ ٢٤٥ - ٢٤٧.

الاختلافُ في رفع الأيدي، وذكرنا هذا الحديثَ وغيرَه هناك.

وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفته، وإلى أين؟ فكان بعضُهم يختار أن يبسط كفَّيه رافعهما حَذْوَ صدرِه وبطونُهما إلى وجهه؛ روي عن ابن عمر وابن عباس. وكان عليٌّ يدعو بباطن كفَّيه، وعن أنسٍ مثلُه، وهو ظاهرُ حديث الترمذيِّ، وقولِه ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكُفِّكُم، ولا تسألوه بظهورها، وامسحوا بها وجوهكم»[١].

وروي عن ابن عمر وابن الزبير: برفعهما[٢] إلى وجهه، واحتجُّوا بحديث أبي سعيد الخدري؛ قال: وقف رسول الله ﷺ بعرفةَ فجعل يدعو، وجعل ظَهْرَ كفَّيْه ممَّا يلي وجهه، ورَفَعهما فوق ثدييه وأسفلَ من منكبيه[٣].

وقيل: يحاذي بهما وجهَه، وظهورُهما ممَّا يلي وجهه.

قال أبو جعفر الطبريُّ: والصوابُ أن يقال: إنَّ كلَّ هذه الآثارِ المرويَّةِ عن النبيِّ ﷺ متفقةٌ غيرُ مختلفة المعاني، وجائزٌ أن يكون ذلك من[٤] النبيِّ ﷺ لاختلافِ أحوالِ الدعاء، كما قال ابن عباس: إذا أشار أحدُكم بإصبعٍ واحدٍ فهو الإخلاص، وإذا رفع يديه حَذْوَ صدره فهو الدعاء، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرُهما ممَّا يلي وجهه فهو الابتهال[٥]. قال الطبري: وقد روى قتادة عن أنس قال: رأيت النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨٥) من طريق محمد بن كعب، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. قال أبو داود: روي هذا الحديث من غير وجه عن محمد بن كعب كلها واهية، وهذا الطريق أمثلها، وهو ضعيف أيضاً.

(٢) في (ز): يرفعهما.

(٣) أخرجه أحمد (١١٠٩٣) و(١١٨٠٦)، وفيه: ثُنْدُوَتيه، بدل: ثدييه، قال السندي كما في حاشية الحديث (١١٠٩٣) من المسند: الثندوة للرجل كالثدي للمرأة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦٨ : فيه بشر بن حرب وهو ضعيف.

(٤) في (م): عن.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٣٢٤٧)، وأبو داود (١٤٨٩) و(١٤٩٠) و(١٤٩١).

يدعو بظهر كفَّيْهِ وباطِنِهما[١].

و«رَغَباً وَرَهَباً» منصوبان على المصدر، أي: يرغبون رَغَباً ويرهبون رَهَباً. أو على المفعول من أجله، أي: للرَّغَبِ والرَّهَب. أو على الحال.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «وَيَدْعُونَا» بنون واحدة[٢].

وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء[٣]، مثل: السُّقْم والبُخْل، والعُدْم والضُّر لغتان.

وابن وثاب والأعمش أيضاً: «رَغْباً وَرَهْباً» بالفتح في الراء والتخفيفِ في الغين والهاء، وهما لغتان مثل: نَهَر ونَهْر وصَخَر وصَخْر. ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو[٤]. ﴿وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: متواضعين خاضعين.

**قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: واذكر مريمَ التي أحصنت فرجها. وإنَّما ذَكَرها ـ وليست من الأنبياء ـ لتتميم[٥] ذِكْرِ عيسى عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقل آيتين؛ لأنَّ معنى الكلام: وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتَهما آيةً للعالمين.

وقال الزجَّاج[٦]: إنَّ الآية فيهما واحدة؛ لأنها ولدته من غير فحل. وعلى مذهب

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨٧)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٩٠ . قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٢/ ١٤٤ : في إسناده عمر بن نبهان، ولا يحتج بحديثه.

(٢) ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٨٥ عن ابن مسعود وابن محيصن، وذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٦ دون نسبة، وذكر عن طلحة أنه قرأ بنون مشددة؛ أدغم نون الرفع في «نا» ضمير النصب.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٣٩٠ .

(٤) القراءات الشاذة ص٩٢ ، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٥) في (د): ليتمم، وفي (م): ليتم.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٨ .

سيبويه التقديرُ: وجعلناها آيةً للعالمين وجعلنا ابنها آيةً للعالمين، ثم حذف. وعلى مذهب محمد بن يزيد: وجعلناها آية للعالمين وابنَها، مثل قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢][(١)].

وقيل: إنَّ من آياتها أنها أولُ امرأة قُبلت في النذر في التعبُّد[(٢)]. ومنها: أنَّ الله عزَّ وجلَّ غَذَاها برزقٍ مِن عندِه لم يُجْرِه على يد عبدٍ من عبيده. وقيل: إنها لم تَلْقَم ثدياً قط[(٣)].

«وَأَحْصَنَتْ» معناه: عَفَّتْ فامتنعت من الفاحشة. وقيل: إنَّ المراد بالفرج فرجُ القميص، أي: لم تعلِّق بثوبها ريبةً، أي: إنَّها طاهرةُ الأثواب. وفُروجُ القميص أربعةٌ: الكمَّان والأعلى والأسفل. قال السُّهَيليُّ[(٤)]: فلا يذهبنَّ وهمُك إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية؛ لأنَّ القرآن أَنْزه معنًى، وأوْزَنُ[(٥)] لفظاً، وألطفُ إشارةً، وأحسنُ عبارةً من أن يريد ما يذهب إليه وهمُ الجاهل، لا سيَّما والنفخُ من روح القُدُس بأمر القدُّوس، فأضف القُدُسَ إلى القدُّوس، ونزِّه المقدَّسَةَ المطهَّرة عن الظنِّ الكاذب والحدس.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ يعني أَمَرْنا جبريل حتى نفخ في دِرْعها، فأَحْدَثْنا بذلك النفخِ المسيحَ في بطنها. وقد مضى هذا في «النساء»[(٦)] و«مريم»[(٧)] فلا معنى

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٨، ووقع في النسخ: الفراء، بدل: محمد بن يزيد، والمثبت من إعراب القرآن، وقد سلف هذا المذهب عن محمد بن يزيد، وكذلك مذهب سيبويه ١٠/ ٢٨٤ - ٢٨٥. أما قول الفراء الذي في معاني القرآن له ٢/ ٢١٠ فهو: ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد، ولو قيل آيتين لكان صواباً؛ لأنها ولدت وهي بكر، وتكلم عيسى في المهد.

(٢) في (خ) و(د) و(م): المتعبد.

(٣) ذكر هذا القول الرازي في التفسير ٢٢/ ٢١٨ عن الحسن، وفيه: تلتقم، بدل: تلقم.

(٤) في التعريف والإعلام ص١١٥، وما قبله منه.

(٥) في (خ) و(ظ): وأرزن.

(٦) ٧/ ٢٣٢.

(٧) ١٣/ ٤٢٩.

للإعادة. ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً وأعجوبةً للخَلْق، وعَلَماً لنبوَّة عيسى، ودلالةً على نفوذ قدرتنا فيما نشاء.

**قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لمَّا ذكر الأنبياء قال: هؤلاء كلُّهم مجتمعون على التوحيد، فالأمةُ هنا بمعنى الدِّين الذي هو الإسلام؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما[١]. فأمَّا المشركون فقد خالفوا الكلّ. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ أي: إلهكم وحدي ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾[٢] أي: أَفْرِدوني بالعبادة.

وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إنَّ هذه أمَّتُكم أُمَّةٌ واحدةٌ»، ورواها حسين عن أبي عمرو[٣].

الباقون: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على القطع؛ لمجيء[٤] النكرة بعد تمام الكلام؛ قاله الفراء[٥]. الزجَّاج: انتصب «أُمَّةً» على الحال، أي: في حال اجتماعها على الحقّ، أي: هذه أمتكم ما دامت أمةً واحدةً واجتمعتم على التوحيد، فإذا تفرَّقتم وخالفتم فليس مَن خالَفَ الحقَّ من جملة أهل الدِّين الحقّ[٦]، وهو كما تقول: فلانٌ صديقي عفيفاً، أي: ما دام عفيفاً، فإذا خالف العفَّة لم يكن صديقي.

وأمَّا الرفعُ فيجوز أن يكون على البدل من «أمتكم». أو على إضمارِ مبتدأ، أي: إنَّ هذه أمتكُم، هذه أمةٌ واحدة. أو يكون خبراً بعد خبر[٧]. ولو نصبت «أمتكم» على

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد الطبري ١٦/ ٣٩٢.

(٢) في (م): فاعبدوني، وهي قراءة يعقوب بالياء وصلاً ووقفاً.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، وحسين هو الجعفي، كما في البحر ٦/ ٣٣٧، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٤) في (م): بمجيء.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢١٠. ويعني بالقطع أنه قُطع عن نعت ما قبله وصار حالاً.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، دون قوله: أي: إن هذه أمتكم هذه أمة واحدة.

البدل من «هذه» لجاز، وتكون «أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ» خبر «إن»[١].

**قوله تعالى:** ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: تفرَّقوا في الدِّين؛ قاله الكلبيّ. الأخفش: اختلفوا فيه[٢]. والمرادُ المشركون، ذمَّهم لمخالفة الحقِّ، واتِّخاذهم آلهةً من دون الله.

قال الأزهريُّ: أي: تفرَّقوا في أمرهم، فنصب «أَمْرَهُمْ» بحذف «في». فالمتقطَّع[٣] على هذا لازمٌ، وعلى الأوّل متعَدّ[٤]. والمرادُ جميعُ الخلق، أي: جعلوا أمرهم في أديانهم قِطَعاً وتقسَّموه بينهم، فمِن موحِّدٍ، ومن يهوديٍّ، ومن نصرانيٍّ، ومن عابدِ ملكٍ أو صنم. ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: إلى حكمنا فنجازيهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ «مِن» للتَّبعيض لا للجنس؛ إذ لا قدرةَ للمكلَّف أن يأتيَ بجميع الطاعات فَرْضِها ونَفْلِها، فالمعنى: مَن يعمل شيئاً من الطاعات فرضاً أو نفلاً وهو موحِّدٌ مسلم. قال ابن عباس: مصدِّقاً[٥] بمحمدٍ ﷺ[٦].

﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ أي: لا جحودَ لعمله، أي: لا يضيع جزاؤه ولا يغطَّى. والكفر ضدُّ[٧] الإيمان. والكفرُ أيضاً: جحودُ النعمة، وهو ضدُّ الشكر. وقد كَفَره

---

(١) المحتسب ٢/ ٦٥.

(٢) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٠.

(٣) في (ظ): فالتقطع.

(٤) عبارة الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ١٨٨: هو كقولك: قطعوا أمرهم. قال أبو البقاء في الإملاء ٤/ ١٤: تقطَّعوا أمرهم، أي: تقطَّعوا في أمرهم، أي: تفرَّقوا، وقيل: عدِّي تقطَّعوا بنفسه؛ لأنه بمعنى: قطَّعوا، أي: فرقوا.

(٥) في (ظ): مصدق.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥١ دون نسبة.

(٧) في (م): ضده.

كفوراً وكُفْراناً. وفي حرف ابن مسعود: «فلا كُفْرَ لِسَعْيه»[١].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ لعمله حافظون، نظيره: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أي: كلُّ ذلك محفوظٌ لنجازيَ به.

**قوله تعالى:** ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قراءةُ زيد بن ثابت وأهل المدينة: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ وهي اختيارُ أبي عبيدٍ وأبي حاتم. وأهل الكوفة ﴿وَحِرْمٌ﴾[٢] ورويت عن عليٍّ وابن مسعود وابن عباس ﷺ. وهما لغتان مثلُ: حِلّ وحَلَال.

وقد روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير[٣]: «وحَرِمَ» بفتح الحاء والميم وكسر الراء. وعن ابن عباس أيضاً وعكرمةَ وأبي العالية: «وحَرُمَ» بضم الراء وفتح الحاء والميم. وعن ابن عباس أيضاً: «وحَرَمَ»، وعنه أيضاً: «وحَرَّمَ»، و«حُرِّمَ». وعن عكرمةَ أيضاً: «وحَرِمٌ». وعن قتادةَ ومطر الوراق: «وحَرْمٌ»؛ تسعُ قراءات. وقرأ السُّلَميُّ: «على قريةٍ أهلكتُها»[٤].

واختلف في «لا» في قوله: «لَا يَرْجِعُونَ»، فقيل: هي صلة؛ رويَ ذلك عن ابن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩.

(٢) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «وحِرْم» بكسر الحاء وإسكان الراء، والباقون: «وحرام» بفتحهما وألف بعد الراء. السبعة ص٤٣١، والتيسير ص١٥٥. وذكر قراءة زيد ﷺ النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٩.

(٣) كذا في النسخ، والذي في المحتسب ٢/ ٦٥، والبحر ٦/ ٣٣٨: وسعيد بن المسيب.

(٤) ذكرت هذه القراءات في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، والقراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٩، والبحر ٦/ ٣٣٨.

عباس، واختاره أبو عبيد، أي: وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك. وقيل: ليست بصلة، وإنَّما هي ثابتةٌ، ويكون الحرام بمعنى الواجب، أي: وَجَب على قرية[١]، كما قالت الخنساء:

وإنَّ حَـرَامـاً لَا أَرَى الـدَّهْـرَ بَـاكِـيـاً ... على شَجْوِهِ إلَّا بكيتُ على صَخْرِ[٢]

تريد أخاها. فـ «لا» ثابتةٌ على هذا القول.

قال النحاس[٣]: والآيةُ مُشْكِلةٌ، ومن أحسن ما قيل فيها وأَجَلِّه ما رواه ابن عيينةَ وابن عُلَيَّةَ وهُشيم وابن إدريس ومحمد بن فُضيل وسليمان بن حيَّان ومعلّى، عن داود ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ قال: وَجَب أنهم لا يرجعون، قال: لا يتوبون. قال أبو جعفر[٤]: واشتقاقُ هذا بيِّنٌ في اللغة، وشَرْحُه: أنَّ معنى حُرِّم الشيء: حُظِر ومُنع منه، كما أنَّ معنى أُحِلَّ: أُبيح ولم يمنع منه، فإذا كان «حَرامٌ» و«حِرْمٌ» بمعنى واجب، فمعناه أنه قد ضيّق الخروج منه ومنع، فقد دخل في باب المحظور بهذا. فأمَّا قولُ أبي عبيد: إنَّ «لا» زائدة، فقد ردَّه عليه جماعة؛ لأنها لا تُزاد في مثل هذا الموضع، ولا فيما يقع فيه إشكال، ولو كانت زائدةً لكان التأويل بعيداً أيضاً؛ لأنه إن أراد: وحرامٌ على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا، فهذا ما لا فائدةَ فيه، وإن أراد التوبة فالتوبةُ لا تُحرِّم.

وقيل: في الكلام إضمارٌ، أي: وحرامٌ على قرية حكمنا باستئصالها، أو بالخَتْم

---

(١) ذكر هذين القولين دون نسبة الطبري ١٦/ ٣٩٧ ، وذكر قول أبي عبيد النحاسُ في إعراب القرآن ٣/ ٨٠ ، وسيأتي، ولم نقف عليه عن ابن عباس، والذي يذكر عنه القول بأن «لا» ثابتة وليست بصلة كما سيرد، وكما ذكر صاحب اللسان (حرم).

(٢) ذكره عن الخنساء أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٩ ، والسمين في الدر المصون ٨/ ١٩٩ . ونسبه صاحب اللسان (حرم) لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي برواية: على عمرو، بدل: على صخر، وقد سلف بهذه الرواية ٧/ ١٧٦ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٧٩ .

(٤) هو النحاس.

على قلوبها، أن يُتقبَّل منهم عملٌ لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون؛ قاله الزَّجَّاج وأبو علي: و«لا» غير زائدة[١]. وهذا هو معنى قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ تقدَّم القول فيهم[٢]. وفي الكلام حذف، أي: حتى إذا فُتح سدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قال ابن عباس: من كلِّ شَرَفٍ يُقْبِلون[٣]، أي: لكثرتهم يَنْسِلون من كلِّ ناحية. والحَدَب: ما ارتفع من الأرض، والجمع: الحِداب[٤]؛ مأخوذ من حدبة الظَّهْر؛ قال عَنْتَرة:

فما رعِشت يداي ولا ازدهاني تَواثُرهم إليَّ من الحِدَاب[٥]

وقيل: «يَنْسِلُونَ»: يخرجون، ومنه قولُ امرئ القيس:

فَسُلِّي ثيابي من ثِيابِك تَنْسِلِ[٦]

وقيل: يسرعون، ومنه قول النَّابغة:

عَسَلَانَ الذئبِ أمْسَى قَارِباً بَرِدَ الليلُ عليهِ فَنَسَلْ[٧]

يقال: عَسَلَ الذئبُ يَعسِلُ عَسَلاً وعَسَلاناً: إذا أَعْنقَ وأسرع. وفي الحديث:

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٥ ، والحجة للفارسي ٥/ ٢٦١ .

(٢) ١٣/ ٣٧٨ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠ ، وأخرج قول ابن عباس الطبري ١٦/ ٤٠٧ .

(٤) الصحاح (حدب).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٧١ ، ولم نقف عليه في ديوان عنترة.

(٦) وصدره: وإن كنت قد ساءتك مني خليقة، وهو من معلقته، وهو في ديوانه ص١٣ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٧١ ، والكلام منه. وسلف ٣/ ٣٨٦ ..

(٧) الصحاح (عسل) ومجاز القرآن ٢/ ٤٢ ، وهو في ديوان النابغة الجعدي ص٩٠ ، ونسب للبيد كما في الكامل للمبرد ١/ ٤٧٤ ، والجمهرة ١/ ٢٥٢ . وذكره القالي في أماليه ١/ ١٥٥ وقال: العَسَلانُ: عدوٌ فيه اضطراب، والنَّسَلان قريب منه. اهـ. والقارب: طالب الماء ليلاً. اللسان (قرب).

«كَذبَ عليك العَسَلَ» أي: عليك بسرعة المشي[١]. وقال الزجَّاج: والنَّسَلان مِشيةُ الذئب إذا أسرع[٢]؛ يقال: نَسَلَ فلانٌ في العَدْوِ يَنْسِل ـ بالكسر والضم ـ نَسْلاً ونُسولاً ونَسَلاناً، أي: أسرع.

ثم قيل في الذين يَنْسِلُون من كلِّ حَدَب: إنهم يأجوج ومأجوج، وهو الأظهر، وهو قولُ ابن مسعود وابن عباس[٣].

وقيل: جميع الخَلْق، فإنهم يُحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلِّ صَوْب[٤].

وقرئ في الشواذ: «وهم من كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُون»[٥] أخذاً من قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. وحَكَى هذه القراءة المَهْدويُّ عن ابن مسعود، والثعلبيُّ عن مجاهدٍ وأبي الصهباء.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القيامة. قال الفرَّاء[٦] والكسائيُّ وغيرهما: الواو زائدةٌ مُقْحَمة؛ والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعدُ الحقُّ، فـ «اقترب» جوابُ «إذا». وأنشد الفرَّاء:

---

(١) الصحاح (عسل)، والحديث ذكره أيضاً الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٣٧٠، والعسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ١٦٦، والزمخشري في الفائق ٣/ ٢٥٠، وابن الأثير في النهاية (كذب): أن عمرو بن معديكرب شكا إلى عمر ﷺ المعَص فقال: «كذب عليك العَسَل». قال ابن الأثير: والمَعَص بالعين المهملة: إلْتواءٌ في عصب الرجل.

(٢) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٤٢٨ عن الليث، ولم نقف عليه عن الزجاج.

(٣) أخرجه عن ابن مسعود الطبري ١٦/ ٤٠٥ - ٤٠٦، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٢، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) أخرج هذا القول الطبري ١١/ ٤٠٥ عن مجاهد.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣ عن ابن عباس والكلبي والضحاك، والمحتسب ٢/ ٦٦ عن ابن مسعود، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٨ عن مجاهد.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢١١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٠.

فلمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانْتَحَى[١]

أي: انتحى، والواوُ زائدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ أي: للجبين ناديناه.

وأجاز الكسائيُّ أن يكون جواب «إذا»: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ويكون قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ معطوفاً على الفعل الذي هو شرط. وقال البَصْريُّون: الجواب محذوف، والتقدير: قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ وهو قولُ الزجَّاج[٢]، وهو قولٌ حسن. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: ٣]. المعنى: قالوا: «ما نعبدهم»، وحَذْفُ القول كثير[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ﴾ «هي» ضميرُ الأبصار، والأبصار المذكورة بعدها تفسيرٌ لها، كأنه قال: فإذا أبصارُ الذين كفروا شَخَصَتْ عند مجيء الوعد؛ وقال الشاعر:

لَعَمْرُ أبيها لا تقول ظَعينتي ... أَلَا فرَّ عنِّي مالكُ بن أبي كعبِ[٤]

فكنَى عن الظعينة في «أبيها» ثم أَظْهَرها.

وقال الفرَّاء: «هي» عماد، مثل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠ ، والبيت لامرئ القيس وهو من معلقته، وهو في ديوانه ص١٥ ، وعجزه: بنا بطنُ حِقْفٍ ذي ركام عَقَنْقَلِ، وسلف ٢/ ٨٥ . قال شارح الديوان: أجزنا: قطعنا، والساحة: الفناء. والحِقف من الرمل: المعوجّ. ومعنى ركام: بعضه على بعض. والعقنقل: المنعقِد المتداخِل.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٥ ، والمعنى: حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق قالوا يا ويلنا.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠ - ٨١ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٠ ، والبيت في معجم الشعراء للمرزباني ص٢٥٦ ، ونقد الشعر لأبي الفرج بن قدامة ص٢٢١ ، والأغاني ١٦/ ٢٣٨ برواية: حليلتي، بدل: ظعينتي. ومالك بن أبي كعب الخزرجي جاهلي، وهو والد كعب بن مالك الصحابي، ولمالك في حروب الأوس والخزرج التي كانت بينهم قبل الإسلام آثار وذكر. الأغاني ١٦/ ٢٢٦ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٠ ، وقوله: عماد، أي: ضمير فصل.

وقيل: إنَّ الكلام تمَّ عند قوله: «هي»، التقدير: فإذا هي ـ يعني القيامة ـ بارزةٌ واقعة، أي: مِن قُربها كأنها آتيةٌ حاضرة، ثم ابتدأ فقال: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على تقديم الخبر على الابتداء، أي: أبصار الذين كفروا شاخصةٌ من هذا اليوم[1]، أي: من هَوْله لا تكاد تَطْرُف، يقولون: يا ويلنا إنَّا كنَّا ظالمين بمعصيتنا، ووَضْعِنا العبادةَ في غير مَوْضِعها.

**قوله تعالى:** ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾

**فيه أربع مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ قال ابن عباس: آيةٌ لا يسألني الناس عنها، لا أدري؛ أَعَرَفوها فلم يسألوا عنها، أم جهلوها فلا يسألون عنها؟! قيل: وما هي؟ قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ لمَّا أُنزلت شقَّ على كفار قريش، وقالوا: شَتَم آلهتنا، وأتوا ابن الزِّبَعْرَى وأخبروه، فقال: لو حضرتُه لردَدْتُ عليه. قالوا: وما كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقول له: هذا المسيحُ تعبده النصارى، واليهودُ تعبد عُزيراً، أفهُما من حصب جهنَّم؟! فعَجِبتْ قريش من مقالته، ورأوا أنَّ محمداً قد خُصم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١][2] وفيه نزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ يعني ابن الزِّبَعْرَى ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] بكسر الصاد، أي: يضجُّون، وسيأتي.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٦٩ ، وذكر هذا القول الآلوسي في روح المعاني ١٧/ ٩٣ عن الثعلبي وقال: وهو وجه متكلَّف متنافر التركيب.

(٢) أخرجه مطولاً الواحدي في أسباب النزول ص٣١٥ ، وبنحوه الطبراني في الكبير (١٢٧٣٩)، ومختصراً الطبري ١٦/ ٤١٨ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٩١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وليس فيه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾.

**الثانية**: هذه الآية أصلٌ في القول بالعموم، وأنَّ له صِيَغاً مخصوصة، خلافاً لمن قال: ليست له صيغةٌ موضوعةٌ للدلالة عليه. وهو باطلٌ بما دلَّت عليه هذه الآيةُ وغيرها، فهذا عبد الله بن الزّبعرى قد فَهِم من «ما» في جاهليته جميعَ مَن عُبِد، ووافَقَه على ذلك قريش وهم العربُ الفصحاء، واللُّسْنُ البلغاء، ولو لم تكن للعموم لمَا صحَّ أن يُستثنى منها، وقد وُجد ذلك، فهي للعموم[١]، وهذا واضح.

**الثالثة**: قراءةُ العامة بالصاد المهملة، أي: إنكم يا معشر الكفار والأوثانَ التي تعبدونها من دون الله وقودُ جهنم؛ قاله ابن عباس[٢].

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حَطَبها[٣]. وقرأ علي بن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما: «حَطَبُ جَهَنَّمَ» بالطاء[٤].

وقرأ ابن عباس: «حَضَبُ» بالضَّاد المعجَمة[٥]؛ قال الفراء[٦]: يريد الحَصَب. قال: وذُكر لنا أنَّ الحَصَب[٧] في لغة أهل اليمن الحطب، وكلُّ ما هيَّجْتَ به النارَ وأوقدْتَها به فهو حَضَب؛ ذكره الجوهري[٨]. والموقد مِحْضَب[٩].

---

(١) ينظر إحكام الفصول للباجي ص٢٣٤، والمستصفى للغزالي ٢/ ١١٧، والمحصول للرازي ٣/ ١٩٩ - ٢٠٢، والإحكام للآمدي ١/ ٤١٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤١١، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٢.

(٣) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٤١١ - ٤١٢، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٠، وعلقه البخاري عن عكرمة إثر الحديث (٤٧٣٩) بلفظ: ﴿حَصَبُ﴾: حطب بالحبشية.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٧.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٦.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢١٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (حضب).

(٧) في (د) و(ز) و(م) والصحاح: الحضب، والمثبت من باقي النسخ ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٣.

(٨) في الصحاح (حضب).

(٩) في (خ) و(د) و(ز): حضب، وفي (ظ): حصب، والمثبت من (م)، وفي اللسان (حضب): المحضب: المسعر، وهو عود تحرك به النار عند الإيقاد، وحكى ابن دريد عن أبي حاتم أنه قال: يسمى المِقْلَى: المِحْضَب.

وقال أبو عبيدة[١] في قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: كلُّ ما ألقيته في النار فقد حَصَبْتَها به.

ويظهر من هذه الآية أنَّ الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطبٌ لجهنم، ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]. وقيل: إنَّ المراد بالحجارة حجارةُ الكبريت، على ما تقدَّم في «البقرة»[٢]، وإنَّ النار لا تكون على الأصنام عذاباً ولا عقوبة؛ لأنها لم تُذْنِبْ، ولكن تكون عذاباً على مَن عبدها: أول شيء بالحسرة[٣]، ثم تجمع على النار فتكون نارها أشدَّ من كلِّ نار، ثم يعذَّبُون بها. وقيل: تُحمى فتلصَقُ بهم زيادةً في تعذيبهم. وقيل: إنما جُعلت في النار تبكيتاً لعبادتهم[٤].

**الرابعة**: قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: فيها داخلون. والخطابُ للمشركين عبدةِ الأصنام، أي: أنتم واردوها مع الأصنام. ويجوز أن يقال: الخطابُ للأصنام وعَبَدَتِها؛ لأن الأصنام وإن كانت جماداتٍ فقد يخبَر عنها بكنايات الآدميِّين. وقال العلماء: ولا يدخل في هذا عيسى ولا عزيرٌ ولا الملائكةُ صلواتُ الله عليهم؛ لأن «ما» لغير الآدميين[٥]، فلو أراد ذلك لقال: «ومَن». قال الزجَّاج: ولأنَّ المخاطَبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم.

**قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي: لو كانت الأصنامُ آلهةً

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٤٢.

(٢) ١/ ٣٥٤.

(٣) في (ظ): لما فيها من الحسرة، بدل: أول شيء بالحسرة.

(٤) في (ظ): لعابديها. والتبكيت: التقريع والتوبيخ. اللسان (بكت).

(٥) تفسيرُ الطبري ١٦/ ٤٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨١.

لَمَا ورد عابِدُوها النار. وقيل: «ما وردوها» أي: العابدون والمعبودون؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهؤلاء الذين وَرَدوا النار من الكفار والشياطين، فأمَّا الأصنام فعلى الخلاف فيها؛ هل يحييها الله تعالى ويعذِّبها حتى يكون لها[1] زفير، أو لا؟ قولان. والزَّفير: صوتُ نَفَس المغموم يخرج من القلب. وقد تقدَّم في «هود»[2].

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: في الكلام حذف، والمعنى: وهم فيها لا يسمعون شيئاً؛ لأنَّهم يُحشرون صُمًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وفي سماع الأشياء رَوْحٌ وأُنْس، فمنَعَ الله الكفارَ ذلك في النار.

وقيل: لا يسمعون ما يسرُّهم، بل يسمعون صوت مَن يتولَّى تعذيبهم من الزَّبَانية.

وقيل: إذا قيل لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] يصيرون حينئذٍ صُمًّا بُكْماً، كما قال ابن مسعود: إذا بقي مَن يخلد في النار في جهنم، جُعلوا في توابيتَ من نار، ثم جُعلت التوابيت في توابيتَ أخرى فيها مساميرُ من نار، فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحدٌ منهم أنَّ في النار مَن يُعذَّب غيره[3].

**قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا﴾

---

(١) في النسخ الخطية: لهم.

(٢) ١١/ ٢١١.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤١٥، والبيهقي في البعث والنشور (٦٥٦) من طريق يونس بن خباب عن ابن مسعود، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٠٨٧) من طريق يونس بن خباب، عمن حدثه، عن ابن مسعود.

أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فمعنى الكلام الاستثناء؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: «إنَّ» هاهنا بمعنى «إلا»[١]، وليس في القرآن غيره.

وقال محمد بن حاطب: سمعت علي بنَ أبي طالب ﷺ يقرأ هذه الآيةَ على المنبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ فقال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ عثمانَ منهم»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حِسَّ النار وحركةَ لهبها. والحَسِيسُ والحِسُّ: الحركة. وروى ابنُ جُريج عن عطاء قال: قال أبو راشد الحَرُوريُّ لابن عباس: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ فقال ابن عباس: أمجنونٌ أنت؟ فأين قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨] وقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]. ولقد كان من دعاء مَن مضى: اللهمَّ أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنةَ فائزاً[٣].

وقال أبو عثمان النَّهْديُّ: على الصِّراط حيَّاتٌ تلسعُ أهل النار فيقولون: حسّ حسّ[٤].

وقيل: إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ لم يسمعوا حسَّ النار[٥]، وقبل ذلك يسمعون، فالله أعلم.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٠ ، ويعني أنه استثناءٌ من قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وذكر الطبري ١٦/ ٤١٩ أن هذا الاستثناء لا معنى له؛ لأن الاستثناء إنما هو إخراج المستثنى من المستثنى منه، ولا شك أن الذين سبقت لهم من الله الحسنى إنما هم ملائكة، وإما إنس، أو جان، وكل هؤلاء إذا ذكرتها العرب فإن أكثر ما تذكرها بـ «مَنْ»، لا بـ «ما».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٥١ - ٥٢ ، وأحمد في فضائل الصحابة (٧٧١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢١٦)، والطبري ١٦/ ٤١٥ ، كلُّهم روَوْه موقوفاً، ولم نقف عليه مرفوعاً.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٩١ ، وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٧١) من سورة مريم، وأبو راشد الحروري هو نافع بن الأزرق.

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٢ .

(٥) في (م): أهل النار.

﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي: دائمون، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعين؛ وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن محيصن: ﴿لَا يُحْزِنُهُم﴾ بضمِّ الياء وكَسْرِ الزاي[١]. الباقون بفتح الياء وضمِّ الزاي. قال اليزيديُّ: حَزَنه لغةُ قريش، وأحزنه لغةُ تميم، وقد قُرئ بهما.

والفزعُ الأكبر: أهوالُ يوم القيامة والبعث؛ عن ابن عباس[٢].

وقال الحسن: هو وقتُ يؤمر بالعباد إلى النار[٣].

وقال ابنُ جُريج وسعيد بن جبير والضحَّاك: هو إذا أطبقت النار على أهلها، وذُبح الموت بين الجنة والنار[٤].

وقال ذو النُّون المِصْريُّ: هو القطيعةُ والفراق[٥].

وعن النبيِّ ﷺ: «ثلاثةٌ يومَ القيامة في كَثيبٍ من المِسْك الأَذْفَر، لا يَحْزُنُهم الفزعُ الأكبر: رجلٌ أمَّ قوماً محتسباً وهم له راضون، ورجلٌ أذَّن لقومٍ محتسباً، ورجلٌ ابتُلِيَ برِقٍّ في الدنيا فلم يَشْغَلْه عن طاعة ربِّه»[٦].

وقال أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن: مررت برجلٍ يضرب غلاماً له، فأشار إليَّ

---

(١) النشر ٢/ ٢٤٤ عن أبي جعفر، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ عن ابن محيصن.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٢ بلفظ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ يعني النفخة الآخرة.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٢ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢١ - ٤٢٢ عن سعيد بن جبير وابن جريج.

(٥) ذكره أبو الليث في التفسير ٢/ ٣٨٠ .

(٦) أخرجه بنحوه أحمد (٤٧٩٩)، والترمذي (١٩٨٦) و(٢٥٦٦)، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٤)، وفي الأوسط (١١١٦). قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٣ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الغلام، فكلَّمتُ مولاه حتى عفا عنه، فلقيت أبا سعيد الخدريَّ فأخبرته، فقال: يا ابن أخي، مَن أغاث[١] مكروباً أعتقه الله من النار يومَ الفزع الأكبر» سمعت ذلك من رسول الله ﷺ[٢].

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تستقبلُهم الملائكة على أبواب الجنة؛ يهنِّئونهم ويقولون لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وقيل: تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور؛ عن ابن عباس[٣]. ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ أي: ويقولون لهم، فحذف. ﴿ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه الكرامة.

**قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بنُ نِصَاح والأعرج والزُّهريُّ: «تُطْوَى» بتاء مضمومة، «السَّمَاءُ» رفعاً على ما لم يسمَّ فاعله[٤]. مجاهد: «يَطْوي»[٥]، على معنى: يطوي الله السماء. الباقون: ﴿نَطْوِى﴾ بنون العظمة.

وانتصابُ «يوم» على البدل من الهاء المحذوفة في الصلة، التقدير: الذي كنتم توعدونه يومَ نطوي السماء. أو يكون منصوباً بـ «نعيد» من قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾. أو بقوله: «لا يحزنهم» أي: لا يحزنهم الفزع الأكبر في اليوم الذي

---

(١) في (خ) ود): أعان.

(٢) لم نقف عليه. وقد ورد هذا المعنى في الصحيح ضمن حديث لأبي هريرة فيما أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عنه، وفيه: «من نفَّس عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا؛ نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة».

(٣) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٨٠ عن مقاتل، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) النشر ٢/ ٣٢٤ عن أبي جعفر.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٤٣ عن شيبة بن نِصاح، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٢ دون نسبة.

نطوي فيه السماء. أو على إضمارٍ: واذكر، وأراد بالسماء الجنس، دليله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: كَطيِّ الصحيفة على ما فيها[١]. فاللام بمعنى «على».

وعن ابن عباس أيضاً: هو اسم كاتبِ رسول الله ﷺ[٢]. وليس بالقويِّ؛ لأن كُتَّاب رسول الله ﷺ معروفون وليس هذا منهم، ولا في أصحابه مَن اسمُه السِّجِلّ[٣].

وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر والسُّدِّيّ: «السِّجلّ» ملَك[٤]، وهو الذي يطوي كتبَ بني آدم إذا رُفعت إليه.

ويقال: إنه في السماء الثالثة، تُرفع إليه أعمال العباد، يرفعها إليه الحفظةُ الموكَّلون بالخَلْق في كلِّ خميس واثنين، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروتُ وماروت[٥].

والسِّجِلُّ: الصَّكُّ، وهو اسمٌ مشتقٌّ من المساجلة[٦]، وهي المكاتبة[٧]، وأصلُها من السَّجْل: وهو الدَّلْو؛ تقول: ساجَلْتُ الرجلَ: إذا نزعتَ دلواً ونزع دلواً، ثم

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٥)، والطبري ١٦/ ٤٢٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٢٢٥ ، والتعريف والإعلام ص١١٥ ، وردَّه أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: لا يصح، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ـ وإن كان في سنن أبي داود وغيره ـ منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي، وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث وردَّه أتم ردّ... وأمَّا مَن ذكر في أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٣ عن ابن عمر والسدي، وذكره الرازي ٢٢/ ٢٢٨ عن ابن عباس.

(٥) التعريف والإعلام ص١١٥ .

(٦) في النسخ عدا (ز): السجالة، والمثبت من (ز) وهو الصواب. وينظر مجمل اللغة ٢/ ٤٨٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٧١ ، والمفهم ٧/ ٣٩٣ .

(٧) في (ظ) و(م): الكتابة.

استُعيرت، فسميت المكاتبةُ والمراجعة مساجلةً. وقد سَجَّل الحاكمُ تسجيلاً. وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مَن يُساجِلْني يُساجِلْ ماجداً ... يَملأ الدَّلوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ[1]

ثم بني هذا الاسم على فِعِلّ، مثل: حِمِرّ وطِمِرّ وبِليّ.

وقرأ أبو زرعةَ بن عمرو بن جرير: «كَطَيِّ السُّجُلِّ» بضمِّ السين والجيم وتشديد اللام[2]. وقرأ الأعمش وطلحة: «كَطَيِّ السَّجْلِ» بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام[3]. قال النحاس: والمعنى واحدٌ إن شاء الله تعالى، والتمام عند قوله: «لِلْكِتَابِ»[4].

والطَّيُّ في هذه الآية يَحتمِلُ معنيين: أحدهما: الدَّرْج الذي هو ضدُّ النَّشْر، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. والثاني: الإخفاء والتعمية والمحو؛ لأنَّ الله تعالى يمحو ويطمسُ رُسومَها ويكدرُ نجومها.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١و٢و١١].

«لِلْكِتَابِ» وتمَّ الكلام ـ وقراءة الأعمش وحفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ ويحيى وخَلَف: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ جمعاً[5] ـ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: نحشرهم حُفاةً عراةً غُرْلاً كما بُدئوا في البطون.

---

(١) الصحاح (سجل)، والبيت في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٧٩٥، والكامل للمبرد ١/ ٢٥٠، والحماسة البصرية ١/ ١٨٥. والكَرَب: هو الحبل يشد في وسط خشبة الدلو فوق الرشاء ليقويه. المعجم الوسيط (كرب). والفضل بن العباس هو أحد شعراء بني هاشم وفصائحهم، وأمه بنت العباس ابن عبد المطلب. الأغاني ١٦/ ١٧٥.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٧.

(٣) المحتسب ٢/ ٦٧ عن أبي السَّمَّال.

(٤) في (د) و(ز): للكتب، وهما قراءتان على ما يأتي.

(٥) السبعة ص٤٣١، والتيسير ص١٥٥ عن حمزة والكسائي وحفص، والنشر ٢/ ٣٢٥ عنهم وعن خلف، والباقون: «للكتاب» على الإفراد.

وروى النَّسائيُّ[١] عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُحشر الناس يومَ القيامة عُراةً غُرْلاً، وأوّلُ الخَلْقِ يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾».

أخرجه مسلم[٢] أيضاً عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ فقال: «يا أيها الناس، إنَّكم تُحشرون إلى الله حُفاةً عُراةً غُرْلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ألَا وإنَّ أوَّل الخلائق يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام» وذكر الحديث. وقد ذكرنا هذا الباب في كتاب «التذكرة»[٣] مستوفًى.

وذكر سفيان الثوريُّ، عن سَلَمةَ بن كُهَيْل، عن أبي الزَّعْراء، عن عبد الله بن مسعود قال: يُرْسِلُ الله عزَّ وجلَّ ماءً[٤] من تحت العرش كمنيِّ الرجال، فتنبت منه لُحمانهم وجسمانهم كما تنبت الأرضُ بالثرى، وقرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[٥].

وقال ابن عباس: المعنى: نُهلك كلَّ شيء ونُفْنيه كما كان أولَ مرة[٦]، وعلى هذا فالكلامُ متَّصلٌ بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفَناء، فلا تكون شيئاً.

وقيل: نُفني السماء ثم نعيدُها مرةً أخرى بعد طَيِّها وزوالها، كقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

---

(١) في المجتبى ٤/ ١١٤ .

(٢) في صحيحه (٢٨٦٠)، وهو عند أحمد (١٩١٣) و(٢٠٩٦)، والبخاري (٣٣٤٩).

(٣) ص٢٠٧ .

(٤) قبلها في (ظ): يوم القيامة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ ، وأخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٥/ ١٩١ - ١٩٥ ، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٣١٤ - ٣١٦ ، والحاكم ٤/ ٤٩٦ - ٤٩٨ . وأبو الزعراء الكندي هو عبد الله بن هانئ، قال فيه البخاري كما ذكر العقيلي: لا يتابع على حديثه.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٣١ .

والقول الأوّل أصحُّ، وهو نظيرُ قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَعْدًا﴾ نصب على المصدر، أي: وَعَدْنا وعداً ﴿عَلَيْنَآ﴾ إنجازُه والوفاءُ به، أي: من البعث والإعادة، ففي الكلام حذف. ثم أكَّد ذلك بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال الزجَّاج[1]: معنى «إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»: إنَّا كنَّا قادرين على [فِعْل] ما نشاء.

وقيل: «إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» أي: ما وَعَدْناكم، وهو كما قال: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨].

وقيل: «كان» للإخبار بما سبق من قضائه. وقيل: صلة.

**قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ الزبورُ والكتاب واحدٌ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل: زبور؛ [من] زَبَرْت، أي: كتبتُ، وجمعه: زُبُر[2]. قال سعيد ابن جبير: «الزَّبور»: التوراة والإنجيل والقرآن ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ الذي في السماء ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾. رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير[3].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٢، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ - ٨٣، وما بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٦٠)، والطبري ١٦/ ٤٣٢ و ٤٣٥ من طريق الأعمش به. وقوله عن الذكر إنه الذي في السماء، يعني به أمَّ الكتاب، كما في تفسير الطبري ١٦/ ٤٣١، والوسيط ٢/ ٢٥٤، وزاد المسير ٥/ ٣٩٧، وسيأتي هذا القول عن مجاهد وابن زيد.

الشعبيُّ: «الزَّبور»: زبور داود، و«الذكر»: توراةُ موسى عليه السلام[١].

مجاهد وابن زيد: «الزَّبور»: كتب الأنبياء عليهم السلام، و«الذِّكر»: أمُّ الكتاب الذي عند الله في السماء[٢].

وقال ابن عباس: «الزَّبور»: الكتب التي أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه، و«الذِّكر»: التوراة المنزلة على موسى[٣].

وقرأ حمزة: «في الزُّبُورِ» بضم الزاي جمع زِبْرٍ[٤].

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أحسنُ ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة ـ كما قال سعيد بن جبير ـ لأنَّ الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم[٥]. وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٦]؛ قال مجاهد وأبو العالية: ودليلُ هذا التأويل قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وعن ابن عباس: أنها الأرض المقدَّسة[٧]. وعنه أيضاً: أنَّها أرض الأمم الكافرة تَرِثُها أمةُ محمدٍ ﷺ بالفتوح[٨].

وقيل: إن المراد بذلك بنو إسرائيل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وأكثرُ المفسرين على أنَّ المراد بالعباد الصالحين أمةُ محمدٍ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٥٥ ، والطبري ١٦/ ٤٣٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ عن مجاهد، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٣٢ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٢٥٤ ، وابن الجوزي ٥/ ٣٩٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٣٣ مختصراً.

(٤) السبعة ص٤٣١ ، والتيسير ص٩٨ ، قال الرازي ٢٢/ ٢٢٩ : ومعنى القراءتين واحد.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٣ .

(٦) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما الطبري ١٦/ ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٩٧ عن الكلبي.

(٨) أورده الطبري ١٦/ ٤٣٧ .

وقرأ حمزة: ﴿عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ بتسكين الياء[١].

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه. وقيل: إنَّ في القرآن ﴿لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثوريُّ: هم أهلُ الصلوات الخمس[٢]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «عابدين»: مطيعين[٣]. والعابد: المتذلِّل الخاضع. قال القشيريُّ: ولا يَبْعُد أن يدخل فيه كلُّ عاقل؛ لأنه من حيث الفطرةُ متذلِّلٌ للخالق، وهو بحيث لو تأمَّل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة.

وقال ابن عباس أيضاً: هم أمةُ محمدٍ ﷺ، الذين يصلُّون الصلواتِ الخمسَ، ويصومون شهرَ رمضان[٤]. وهذا هو القول الأوّل بعينه.

**قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان محمدٌ ﷺ رحمةً لجميع الناس، فَمَن آمن به وصدَّق به سَعِد، ومَن لم يؤمن به سلِم ممَّا لَحِقَ الأممَ من الخَسْفِ والغرق[٥]. وقال ابن زيد: أراد بالعالَمين

---

(١) السبعة ص٤٣٢ ، والتيسير ص١٥٦ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤١ ، وذكره عن سفيان النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٣ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ دون نسبة، وأخرج الطبري ١٦/ ٤٣٩ عن ابن عباس قوله: «عابدين»: عالِمين.

(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في الشعب (٢٩١٢). وأخرجه بلفظ المصنف الطبري ١٦/ ٤٣٨ عن كعب الأحبار.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٣ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٤٠ ، والطبراني في الكبير (١٢٣٥٨)، وأبو الشيْخ في تاريخ المحدثين بأصبهان (٥٧٢).

المؤمنين خاصة[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فلا يجوز الإشراك به. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لتوحيد الله تعالى، أي: فأسلموا، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: إن أعرضوا عن الإسلام ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتُكم على بيانٍ أنَّا وإيَّاكم حربٌ لا صُلْحَ بيننا، كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: أعْلِمْهم أنك نقضتَ العهد نقضاً استويت به[٢] أنت وهم، فليس لفريقٍ عهدٌ ملتزَمٌ في حقِّ الفريق الآخر.

وقال الزَّجَّاج: المعنى: أعلمتُكم بما يوحَى إليَّ على استواءٍ في العلم به، ولم أُظْهِر لأحدٍ شيئاً كتمتُه عن غيره[٣].

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ «إن» نافيةٌ بمعنى «ما»، أي: وما أدري. ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني أجل يوم القيامة لا يدريه أحدٌ، لا نبيٌّ مرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مقرَّب؛ قاله ابن عباس. وقيل: آذنتكم بالحرب ولكنِّي لا أدري متى يؤذَن لي في محاربتكم.

**قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: من الشِّرك، وهو المُجازِي عليه. ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أي: لعلَّ الإمهال ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي: اختبارٌ ليرى كيف صنيعكم، وهو أعلم. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: إلى انقضاء المدَّة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٤٠ - ٤٤١.

(٢) قوله: به، من (ظ)، ووقع في (د) و(م): أي: استويت.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٨، ولفظه فيه: أعلمتكم بما يوحَى إلي لتستووا في الإيمان به.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ رأى بني أمية في منامه يَلُون الناس، فخرج الحَكَمُ من عنده فأخبر بني أمية بذلك، فقالوا له: ارجع فسَلْه متى يكون ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: قل لهم ذلك[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾[٢] ختم السورة بأنْ أمر النبيَّ ﷺ بتفويض الأمر إليه، وتوقُّعِ الفَرَج مِن عنده، أي: احكُم بيني وبين هؤلاء المكذِّبين وانصرني عليهم. روى سعيد عن قتادة قال: كانت الأنبياء تقول: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ فأُمر النبيُّ ﷺ أن يقول: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ فكان إذا لقيَ العدوَّ يقول وهو يعلم أنه على الحقِّ وعدوّه على الباطل: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: اقضِ به[٣].

وقال أبو عبيدة: الصفةُ هاهنا أقيمت مقامَ الموصوف، والتقدير: ربِّ احكم بحكمك الحقّ[٤].

و«ربِّ» في موضع نصب؛ لأنه نداءٌ مضاف.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن: «قُلْ رَبُّ احْكُمْ بالحقِّ» بضم الباء[٥]؛ قال النحاس[٦]: وهذا لحنٌ عند النحويين؛ لا يجوز عندهم: رجلُ أَقْبِلْ، حتى تقول: يا رجلُ أقبلْ، أو ما أَشبهه.

وقرأ الضحَّاك وطلحةُ ويعقوب: «قال ربِّي أَحْكَمُ بالحقِّ» بقطع الألف مفتوحةَ

---

(١) لم نقف عليه، والضعف فيه ظاهر.

(٢) قرأ حفص عن عاصم: «قال» بالألف، والباقون: «قل» بغير ألف. السبعة ص٤٣١ - ٤٣٢ والتيسير ص١٥٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢.

(٤) ذكر هذا القول الطبري ١٦/ ٤٤٥ دون نسبة.

(٥) النشر ٢/ ٣٢٥ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٨٤.

الكاف، والميمُ مضمومة[١]. أي: قال محمدٌ: ربِّي أحكَمُ بالحقِّ من كلِّ حاكم.

وقرأ الجحدريُّ: «قُلْ ربِّي أَحْكَمَ»[٢] على معنى: أَحْكَمَ الأمورَ بالحقّ.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: تصفونه من الكفر والتكذيب. وقرأ المفضَّل والسُّلَميُّ: «علَى ما يَصِفون» بالياء على الخبر[٣]. الباقون بالتاء على الخطاب.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٣ ، والمحتسب ٢/ ٧١ . والقراءة المتواترة عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ: ربِّ احْكُمْ، كقراءة الجماعة.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٣ .

(٣) رواية لابن ذكوان عن ابن عامر؛ كما في السبعة ص٤٣٢ ، ورواية المفضل عن عاصم، كما في النشر ٢/ ٣٢٥ .